محمد توفيق
النحس
هل نحن شعب منحوس فعلا!
كيان للنشر والتوزيع
محاكمة
قادم
٢٥
يناير
٣٠
يونيو
٢٠١٢
بورسعيد
حظك
١٩٥٢
١٩١٩
عنها واليها
انسى يا عمرو

النَّحس

هل نحن شعبٌ منحوس فعلاً؟

محمد توفيق

الإهداء

إلى كل من يتمسك بالأمل رغم أنه يعيش في مصر..

ويشجِّع الزمالك!

خطّط للأسوأ!

البني آدمين نوعان: واحد يسيطر على النّحس، وآخر يسيطر عليه النّحس!

فلا يوجد إنسان على وجه الأرض لم يشعر في لحظة بأنه سيئ الحظ، لكن هناك من يقمع هذا الشعور بالجد والاجتهاد والصبر والمثابرة، وهناك من يتركه يتمدد وينتشر ويتسرب إلى نفسه حتى يشعر أنه المنحوس الأكبر على وجه الكرة الأرضية.

فكل بني آدم فيه «حتة نحس»، وإذا كان مصريًّا فهو لديه، قُطْعًا، قطعة أكبر من غيره!

فالمواطن المصري هو المادة الخام للنحس، فيكفي أن العالم يخطط لما يمكن أن يفعله بعد ٥٠ سنة، بينما نحن لا ندري ما يجري حولنا الآن!

في مصر لا تحتاج إلى سبب لتشعر أنك سيئ الحظ، فكل ما حولك يدعوك لأن تغلي من فورة الغضب، فيكفي أن تقف في طابور عيش، أو طابور بنزين، أو طابور جمعية، أو طابور تذاكر، أو حتى طابور تقديم طلبات الهجرة!

والسؤال: هل نحن شعب منحوس فعلا؟

والجواب: من المؤكد أنه لا يوجد شعب بأكمله منحوس وآخر

محظوظ، لكن في الوقت نفسه ليس صدفة أنه كلما تولى السلطة في مصر رجل قوي خلَفَه على العرش رجل ضعيف.

فرغم قوة ابن طولون وفتوحاته وانتصاراته فإنه كان سيئ الحظ، فحين خرج ليقود إحدى المعارك الكبرى للحفاظ على الدولة عاد فوجد أن ابنه قد استولى على السلطة! وبعد أن استرد حكمه غادر الحياة، وجاء إلى العرش خليفة هزيل شغوف بالعطور والنساء يُدعى «خمارويه».

وما جرى مع ابن طولون تكرر مع القائد صلاح الدين الأيوبي الذي كان يُحسن اختيار سفرائه، لكنه لم يُجِد اختيار وزرائه -فبعضهم كان عدوًّا للآخر، والبعض الآخر اشتهر بالطغيان- ولم يُحسن اختيار مَن يخلفه على العرش فأتى خلفه الملك العزيز بالله الذي أباح الدعارة، وتدخين الحشيش، وتفرغ للنساء، وحاول هدم الهرم الأصغر!

هذا هو حظ مصر مع حكامها، فبعد علي بك الكبير حضر البرديسي. وبعد أن بنى الضابط الألباني محمد علي باشا مصر الحديثة جاء الخديو الضعيف سعيد. وحين قامت ثورة يوليو ضد حكم الأسرة المالكة وانتقلنا إلى حكم الضباط الأحرار، وتوحد الشعب المصري خلف الزعيم جمال عبد الناصر، وظن الجميع أن مصر صارت واحدة من القوى الكبرى، وأن نهاية إسرائيل قد اقتربت، وقعت النكسة. وحين جاء الرئيس السادات وحقق نصر أكتوبر ذهب بعده إلى تل أبيب. وبعد أن أطاحت ثورة يناير بحسني مبارك ونظامه أتى خلفه واحد من أقرب رجاله إلى قلبه ليحكم مصر لعام ونصف العام بعد الثورة. ثم حين جاءت أول انتخابات حقيقية في تاريخ مصر، فاز بها رجل من أضعف الرجال،

وعندما أطاح الشعب به لم يجد أمامه سوى رجل عسكري!

.. كأننا ندور في حلقة مفرغة.

لكن المصري بطبعه متفائل، لأنه لو لم يكن كذلك لصارت معدلات الانتحار تاريخية، ربما لأن أقصى طموحاته أن يظل حيًّا، فهذه وحدها واحدة من المعجزات، فرغم كل ما يحدث حوله ومعه وفيه فإنه ما زال صامدا وقادرا على الضحك ومُصرًّا على التفاؤل.

وأنا واحد من هؤلاء الذين يرفضون الإحباط رغم كثرة الطرق المؤدية إليه، ويصرون على التفاؤل ولو لم يَسِر في طريقه أحد سواهم، ويسعون لتحويل بؤرة الفشل إلى طاقة أمل، ويتفاءلون بالأفضل لكنهم يخططون للأسوأ!

فقد انتهيت من كتاب «مصر بتلعب» حين حدث شرخ في قدمي، وصرت لا أستطيع مغادرة الفراش، وأكملت «الخال» في أثناء إحدى فترات حظر التجول التي أعقبت ثورة ٣٠ يونيو، وأنجزت كتاب «الغباء السياسي» بعد أن تركت العمل بصحيفة «المصري اليوم»، وبدأت كتابة «ضحكة مصر» في اليوم التالي لاستقالتي من جريدة «الدستور»، وقررت كتابة «أولياء الكتابة الصالحون» بعد أن اعتذرت عن العمل في «اليوم السابع»، وفي الوقت الذي تم فيه الإعلان عن إغلاق جريدة «التحرير» خلال عملي بها- كنت قد قاربت على الانتهاء من كتاب «النحس»!

وشاء القدر أن يرتبط حظي برقم ٦، فيوم خطوبتي كان ٦ سبتمبر، ويوم زواجي ٦ ديسمبر، وحضرت ابنتي إلى الدنيا يوم ٦ أكتوبر، لكن هذا لا يمنع أن هذا الرقم يذكّرني بأسوأ الأحداث الرياضية التي شهدتها وشاهدتها في استاد القاهرة وهو يوم مباراة «الستة

واحد» بين الأهلي والزمالك!

ورغم أنني أعتبر نفسي واحدًا من أكثر الناس حظًا، فإن هذا لا يمنع أني واجهت سوء حظ مبالَغ فيه لفترات طويلة، فكنت كلما أخطط لإصدار صحيفة يشاء القدر أن لا ترى النور وأن لا يظهر منها سوى العدد التجريبي، ففي صحيفة واحدة قمت بطباعة ثلاثة أعداد «زيرو»، وفي صحيفة أخرى قمت بعمل عددين «زيرو» ولم تصدر بسبب رفض الكاتب صلاح عيسى صاحب كتاب «مثقفون وعسكر»، الأمين العام للمجلس الأعلى للصحافة، لاسم الصحيفة، وقال مبررا رفضه: «إن اسمها يتعارض مع مقام الرئاسة، ويقلل من هيبة الرئيس»! كل ذلك لأن الصحيفة كان اسمها «الرئيس»!

لكنني لم أفقد الأمل، وجرّبت محاولات أخرى، لدرجة أنني، كسرًا للنحس، قمت بعمل ثلاث صحف بثلاثة مقاسات مختلفة، سواء بالقطع الصغير أو الكبير أو المتوسط، لكن لا فرق، فكلها لم تظهر في الأسواق!

فالنَّحس لا يفرّق بين كبير وصغير، رئيس وخفير، غني وفقير، عالم وجاهل، بل إن أغلب من يشعرون ويتأثرون بالحظ، والنَّحس، ويذهبون إلى الدجالين والعرافين هم مشاهير الفن والسياسة والرياضة، لكن أغرب واقعة حدثت واشتهرت وانتشرت بين الفنانين هي ما جرى في أغنية «من غير ليه»، فهذه الأغنية كتبها الشاعر مرسي جميل عزيز ليغنيها عبد الحليم حافظ، وبعدها رحل الشاعر الكبير، وهي أيضًا آخر أغنية أجرى عليها حليم بروفات أولية قبل رحيله مباشرة، وحين قرر الموسيقار محمد عبد الوهاب أن يغنيها بنفسه حاول صديقه الكاتب الكبير أحمد رجب أن يقنعه بالابتعاد عن تلك الغنوة، لكنه رفض النصيحة، وأسند

توزيعها إلى الفنان أحمد فؤاد حسن فرحل بعدها مباشرة، وغناها عبد الوهاب فكانت أغنيته الأخيرة!

الفصل الأول
دور النَّحس في الثورة

حاكمٌ مستبدٌّ، وثُوّارٌ أنقياء، وقادةٌ خونة، وشعبٌ غاضبٌ، ورمزٌ مدنيٌّ، وقائدٌ عسكريٌّ، ونفس المطالب.. ونفس النتائج!

ثورة بالكربون!

ثورتان في عامين فقط...

كلتاهما نسخة كربونية من الأخرى، فالأهداف واحدة، والمطالب هي ذاتها، ولا فروق واضحة، لذا يَعتبر البعض أن الثانية جاءت استكمالاً للأولى وتصحيحًا لمسارها، بينما يرى البعض الآخر أن الثانية انقلاب على الشرعية!

فرغم أن كلتيهما كانت ثورة شعبية بكل معنى الكلمة، حرّكها وأشعلها البسطاء من أجل العيش والحرية والكرامة، فإن بعض المثقفين خانوها. ورغم نُبل أهداف الثورتين وإخلاص الثائرين، فقد قُدِّر لهما أن تنحسر موجتهما وأن تنكسر شوكتهما، والسبب أن الثورة (بنسختيها) رغم عنفها وقوتها كانت بلا قيادة!

صدفة عجيبة! نفس التفاصيل تتكرر بنفس الطريقة، كأننا لا نقرأ التاريخ، ولا نعلم ما جرى، ولا نريد أن نتعلم منه أو نتجاوزه، فما حدث في ثورتي القاهرة الأولى والثانية يشبه ما حدث في ثورتي ٢٥ يناير و٣٠ يونيو مع فروق طفيفة لم تؤثر في النتائج، ولم تحقق المطالب.

ففي ثورة القاهرة الأولى كان الغضب في قمته، وسخط الناس بلا حدود، ولكن عدم وجود قيادة جعل الناس يفقدون الرؤية الصحيحة ويخطئون الهدف.

فقد حدثت خلال الثورة أخطاء شديدة من جانب الثوار، إذ هاجمت الجماهير الغاضبة محلات التجار ونهبوها وأشعلوا فيها النيران، مع أن هؤلاء التجار كانوا ردئًا للثورة، وربما كانوا أكثر سخطا على السلطان، واعتدى بعض أجنحة الثورة على بعض الحارات، وتعدّوا بالضرب على الآمنين من السكان، وفي النهاية تم قمع الثورة قمعا شديدا بعد أن حضر الخليفة المأمون إلى مصر ليقمع الثورة بنفسه، وقد دخلها في شهر محرم واستطاع أن يقضي على الثورة بعد أن أمعن في القتل، وقيل إن الطيور الجارحة كانت تحلّق في الفضاء، ولا تنقضّ على الجثث المطروحة في الصحراء، لأنها أكلت حتى شبعت.

ولم تستمر سوى ١٩ يوما فقط، وأُجهضت في اليوم العشرين، حين ذهب بعض المشايخ والمثقفين إلى قائد العسكر، وتشفعوا عنده، فقبل اعتذارهم ورفع الرمي عنهم.

إنه موقف يتكرر دائمًا على مر التاريخ، ففي الوقت الذي كانت فيه القاهرة تشتعل بالثورة ضد الملك وبطانته أعلن بعض المشايخ اكتشافهم المثير أن الملك فاروق من أحفاد النبي (صلى الله عليه وسلم)! ولكن هذا لم يكن موقف المثقفين جميعا، ولكنه موقف بعض الانتهازيين و«الأرزقية» وعلماء السلطة الذين يتاجرون بشرف الكلمة في سوق البغاء -على حد تعبير عمنا محمود السعدني!

ولم يكتف هؤلاء المشايخ بما فعلوا لكنهم كتبوا عدة أوراق وأرسلوها إلى البلاد وألصقوا منها نسخًا بالأسواق والشوارع، وكان مما جاء فيها: «نصيحة من كافة علماء الإسلام بمصر المحروسة: نعوذ بالله من الفتن، ما ظهر منها وما بطن، ونبرأ إلى الله من

الساعين في الأرض بالفساد، هؤلاء الذين حركوا الشرور بين العساكر الفرنسيين والمصريين، لكن بونابرت غفر لمن أخطأ، وتجاوز عمن أساء، لأنه رجل كامل العقل، ولديه رحمة وشفقة على المسلمين، ومحبة إلى الفقراء والمساكين، ولولاه لكانت العساكر أحرقت جميع المدينة، ونهبت جميع الأموال، وقتلوا كامل أهل مصر.. فعليكم أن لا تحركوا الفتن، ولا تطيعوا أمر المفسدين، ولا تسمعوا كلام المنافقين، ونخبركم أن كل من تسبب في تحريك هذه الفتنة قُتلوا عن آخرهم! وأراح الله منهم العباد والبلاد»!

ما جرى في ثورة القاهرة الأولى تكرر في الثانية بعد أقل من عامين فقط، فمثلما بدأت ثورة القاهرة الأولى يوم السبت بدأت الثانية في ذات اليوم، ففي صباح يوم ٢٢ من مارس عام ١٨٠٠ خرج معظم أهل مصر -للثورة على الاحتلال الفرنسي- ما عدا الضعيف الذي لا قوة له على الحرب -على حد وصف الجبرتي- وأحضروا «المُثقلات» التي يَزِنُون بها البضائع، من حديد وأحجار، واستعملوها عوضًا عن المدافع، وصاروا يضربون بها بيت قائد العسكر بالأزبكية.

ووُضعت جائزة لكل من يقبض على عسكري فرنسي، أو يُحضر رأسه، لكن قوات الاحتلال قطعت على الناس سبل الوصول إلى الطعام والشراب، وحرقوا البنايات، واستمر الحال على ما هو عليه من اشتعال نيران الحرب، وشدة البلاء، وصراخ النساء والأطفال من الخوف والجزع والهلع، وفقدان المأكل والمشرب، وإغلاق المخابز، ووقف حال الناس من البيع والشراء.

لكن الشعب تحمّل وتحامل على نفسه في سبيل طرد المُحتل الفرنسي، فاستمرت الثورة سبعة وثلاثين يوما، بعدها ظن الاحتلال أن الثورة انتهت إلى الأبد، بينما الحقيقة أن جولة جديدة قد

بدأت، وبحثت في طرد قوات الاحتلال من مصر، لتبدأ الصراع على السلطة بين الموالين للاحتلال العثماني، وفلول الاحتلال الفرنسي.

هنا شعر عدد من القيادات الوطنية والثورية -من بينهم الزعيم عمر مكرم- أن البلد في حاجة إلى زعيم يلتفّ الناس حوله، ويحاربون معه، واستقر الرأي على أن الشخص الأنسب لكرسيّ الحكم هو الضابط الألباني محمد علي الذي انتصر على الأتراك، وأحبه الناس في مصر، ووثقوا به، إذ رأوا أنه يمتلك الحلقة العسكرية التي تساعده في الحكم، وبالفعل ذهب إليه صفوة القوم من علماء ومشايخ يتقدمهم الزعيم الوطني عمر مكرم وتفاوضوا معه حتى وافق على حكم مصر.

ومرت سنوات قليلة، وشعر محمد علي باشا أن شوكة المعارضة تقوى، فأراد أن يوجه إليها ضربة قاصمة، فأمر بنفي الزعيم عمر مكرم!

ثورة ولاّ انقلاب؟!

.. كأن التاريخ -عندنا- لا يفعل شيئًا سوى أنه يعيد نفسه.

حاكم مستبد، وثوار، وخونة، وشعب غاضب، ورمز مدنيّ، وقائد عسكري، ونفس المطالب: العيش والحرية والعدالة والكرامة والدستور.. ونفس النتائج!

نفس الحالة، فثورات المصريين لا تسير إلا في حراسة الجيش، يحميها أو يسطو عليها، فالجيش دائمًا جزء أصيل في معادلة الثورات، لأنه بالأساس قوى وطنية، وقوة مؤثرة، وفاعلة، وقادرة على تغيير الواقع، أو خلق واقع جديد إن أراد!

ربما لذلك كل الثورات لم تؤتِ ثمارها، ولم تصل نتائجها إلى حجم التوقعات المرجوة منها، والتضحيات التي بُذلت فيها، لأن قوى واحدة، وقوة وحيدة تستطيع فرض أولوياتها على الجميع، خصوصًا في ظل الصراعات، والنزاعات، والمشاحنات، والمصادمات، وغياب الرؤية، واختلال الأولويات، والتفرغ للتشكيك والتخوين الذي تسبب في بقاء الأوضاع كما هي، إن لم تسر في الطريق الأسوأ.

ويوم التاسع من شهر سبتمبر سنة ١٨٨١ شاهد عيان على ما جرى وما زال يجري.

حينذاك كتب الزعيم أحمد عرابي إلى وزير الحربية يطلب إليه أن يُبلغ الخديو بأن آلايات الجيش جميعًا ستحضر إلى ساحة عابدين

في الساعة الرابعة بعد ظهر يوم الجمعة لعرض طلبات الشعب والجيش عليه، وأبلغه أن مظاهرة قوات الجيش ستكون سلمية!

وتحرك الجيش...

وسار عرابي على رأس جنده ومعهم المدافع، وتجمع الشعب خلف صفوف الجيش، فدخل الخديو السراي من الباب الخلفي!

وعرض عرابي طلبات الشعب والجيش، وكانت إسقاط الوزارة المستبدة، وتشكيل مجلس نواب على النسق الأوروبي، ورفض الخديو في أول الأمر، لكنه عاد، ووافق مضطرا ومرغما، واتفقا على اختيار شريف باشا -أول من طالب بوضع دستور للبلاد- رئيسًا للوزراء، لكن شريف عارض أول الأمر في قبول الوزارة، وكانت حجته أن قبوله الحكم من غير قيد ولا شرط يضعه تحت سلطة الحزب العسكري، الأمر الذي لا يطيق أن يحمل نفسه على قبوله.

وبعد مفاوضات طويلة وافق شريف شريطة أن لا يتدخل القادة العسكريون في الحكم، ووافق عرابي لكن اشترط أيضًا أن يختار وزيرين في الحكومة الجديدة، وأن يعيد النظر في القوانين الخاصة بالجيش، وذلك في مقابل أن يخضعوا لحكمه، ويبتعدوا عن كل تدخل في شؤونه، لكن هذا الاتفاق لم يدم طويلا، ولم ينفَّذ على أرض الواقع.

وكان هذا هو خطأ الزعيم الوطني أحمد عرابي، أنه وثق بنفسه أكثر من اللازم، وجعل الناس يظنون أنه بُعث لإنقاذهم، وأنه لا بديل له، فرغم وطنيته وإخلاصه ونُبل أهدافه فإنه لم يكن على حظ كبير من الكفاءة السياسية وبُعد النظر، ومن هنا جاء شططه -على حد تعبير عبد الرحمن الرافعي- وعدم تقديره للأمور وملابساتها، وعرابي معذور في ذلك لأنه لم ينل حظًا كبيرًا

من الثقافة والإلمام بشؤون السياسة وأطوارها، ولم يكن لديه محصول علمي يكفيه لتكوين الرأس المدبر للثورات، القدير على تذليل المعضلات، وحسن التصرف في ما يعرض على البلاد من أحداث وأزمات.

فكان على جانب كبير من الغرور والاعتداد بالنفس، إذ كان يعتقد في نفسه القدرة على تصريف الشؤون السياسية جميعًا، ولو أنه عرف قدر نفسه واستعان برجل من معاصريه قدير في شؤون السياسة كشريف باشا، لكان ممكنًا أن تسير الثورة في سبيل النجاح إلى النهاية، ولكنه على العكس قد عمل على التخلص منه حتى أقصاه عن الوزارة، فخسرت الثورة الرأس المفكر -على حد وصف الرافعي- الذي كان يستطيع تفهم الحوادث والملابسات السياسية، وقيادة السفينة وسط الخضم الذي كانت تموج فيه.

وآلت الأمور إلى ما آلت إليه، فقد اصطدم عرابي بشريف باشا، فاستقال شريف، وتحقق للخديو ما أراد، وحل محله القائد العسكري محمود سامي البارودي.

وجاء يوم ١٣ سبتمبر عام ١٨٨٢...

وهبط الإنجليز إلى الإسكندرية بجنودهم للقضاء على ثورة عرابي، والخزانة خاوية، وليس في البلد جيش منظم أو ذخيرة أو طعام، حتى الملابس التي يرتديها الجنود كانت غير متوافرة، وتجمع آلاف الفلاحين في صحراء التل الكبير يحفرون الخنادق، ويقيمون المتاريس، وأخذ كل مواطن يتبرى في الفداء والتضحية والاستغناء عما يملكه -ولو كان قليلا- لصالح الجيش.

فقد كانت النيات طيبة، لكن النية وحدها لا تصنع انتصارًا، فالثورات مثلما تفرز الأبطال تفرز الخونة وضعاف النفوس، ففي

الوقت الذي كان فيه الجنود على أهبة الاستعداد لقتال الإنجليز، تسلل أحد الضباط ويدعى سعيد الطحاوي إلى خيمة أحمد عرابي، وأقسم له أن الإنجليز لن يهجموا قبل أسبوع ثم تسلل خارجًا إلى صفوف الإنجليز ليرشدهم عن أماكن تمركز الجنود المصريين!

ويطمئنّ ولسي، القائد الإنجليزي، إلى أن المصريين سينامون ليلتهم نوم الأبرار، ويطفئ الجيش العاري أنواره، ويخيّم الظلام الدامس، ويزحف ١١ ألفًا من المشاة، وألفان من الفرسان، وستون مدفعًا، وانحشر سعيد الطحاوي في المقدمة يرشدهم إلى الطريق، ولم يكن يؤدي هذه المهمة وحده، بل كان يعاونه لفيف من الخونة يتقدمهم علي يوسف الشهير بـ «خنفس» الخائن الذي وثق به عرابي فباعه، وقبض الثمن، وأرسل جنوده للراحة، وأنار الطريق لقوات الاحتلال الإنجليزي.

ودفع الأبطال الثمن بالنفي والسجن، وقبض الخونة الثمن، بضعة آلاف من الجنيهات، وقد كتب «خنفس» الخائن الذي وثق به عرابي إلى الإنجليز يتظلم لأنه أخذ ألفين فقط، ولم يأخذ عشرة آلاف مثل سلطان باشا!

هذا هو حظ مصر، فلو وثق عرابي بشريف باشا وترك له شؤون السياسة وتفرغ لإدارة الجيش، لما تسلل الإنجليز من عيوبنا قبل أن يتسللوا من حدودنا، وربما سارت مصر في طريق آخر منذ أكثر من قرن من الزمان، وصار لديها دستور حقيقي في القرن التاسع عشر، يضمن الحقوق والحريات، والعدالة والكرامة، وما كان الخديوي ليستطيع التدخل لأنه يدرك أن الجيش يقف مع الشعب... لكن عرابي لم يثق إلا بنفسه، ولم يثق الشعب بأحد سواه.

مافيش فايدة!

.. وهكذا جاءت نهاية ثورة ١٩!!

في ١٤ ديسمبر عام ١٩٢٠ دبّت بذور الخلاف داخل الحركة الوطنية، ودارت مشادة كلامية في باريس بين الزعيم سعد زغلول ورفاق الثورة، لخلافهم حول المشروع الذي طرحه اللورد ملنر الذي يعترف لمصر باستقلالها مع ضمان وجود قواعد عسكرية بريطانية، ووصل الخلاف لدرجة جعلت سعد يقول: «إن من يوافق على هذا المشروع الذي لا يمنح مصر استقلالها كاملا خائن للأمانة عن عمد وسبق إصرار»، ويرد عليه عبد العزيز فهمي محتدًّا: «يا ريس.. لست أنت الوطني الوحيد الذي أنجبته مصر»!

واضطربت الجلسة، وخرج فهمي، وخلفه بقية الوفد الذي فوضه الشعب المصري للحديث باسمه، وباءت المفاوضات بالفشل، ووصل رفاق الثورة إلى مفترق طرق، وتبادلوا الاتهامات بالخيانة والعمالة، ولم يدر بخلد أحد الطرفين أنه «عسى أن يختلف اثنان وكلاهما على الحق» مثلما يقول العم نجيب محفوظ.

ودفعت مصر كلها ثمن هذا الخلاف، فبعد عام واحد فقط اشتعل بركان الغضب في كل أرجاء البلاد، وبدلا من أن يقف الشعب المصري في مواجهة قوات الاحتلال البريطاني، وقف المصريون وجهًا لوجه، ليسقط عدد كبير من القتلى والجرحى، وذلك بعد أن أطلق جندي مرتبك النار على بعض المتظاهرين من تلاميذ

المدارس الثانوية فقتل اثنين في الحال، وأصيب أربعون، واتجه بعض المتظاهرين إلى منزل الحكمدار لإحراقه لولا أن تدخلت قوة من الجيش لدعم الشرطة.

لم يتصور أحد أن رفاق المنفى الذين تعرضوا للقمع والمنع والتضييق والسجن والنفي خارج البلاد، يمكن أن يصيروا أعداء، وبدلا من أن يتوحدوا، ويقفوا في وجه الاحتلال صاروا يتصارعون، ويقف أنصارهم وجهًا لوجه في الميادين، وانقسموا إلى جبهتين كلتاهما تُخوِّن الأخرى، وترى أنها على الحق، وأن الشعب يقف معها، وأنها وحدها تملك صكوك الثورة.

ما جرى بين الرفاق لا يمكن تصديقه، فالشقاق كان كبيرا، والهوة كانت واسعة، وحجم الخلاف والتضارب كان مذهلا، فمن كان يدافع عن حرية الرأي صار ضدها، ومن جاء إلى الوزارة بالثورة أصدر قرارًا بمنع التظاهر، والقبض على قادة المظاهرات!

فحين تعرض سعد للنفي في المرة الأولى في جزيرة مالطة كان معه اثنان من قادة الثورة، هما محمد محمود وإسماعيل صدقي، لكن بعد عام واحد فقط من قيام الثورة انتقل محمد محمود إلى خانة أعداء سعد، وصار رئيسًا للوزراء أربع مرات، وفي كل مرة كان يحتفظ لنفسه بمنصب وزير الداخلية، واشتهر بقمع المتظاهرين! أما إسماعيل صدقي باشا فقد ترأس الحكومة ثلاث مرات، ويعد أكثر السياسيين الذين لاقوا رفضًا شعبيًا، لأنه أسهم في إلغاء دستور ١٩٢٣، وحل مجلسي النواب والشيوخ، وشكل حكومة قمعية، فثار الشعب عليه، وترك الحكومة، واعتزل العمل السياسي.

لكن بعد حادثة كوبري عباس تم ترشيحه للوزارة مرة أخرى، فجاء مدعومًا من الملك و«الإخوان المسلمون»، وروج الإخوان

للرجل المكروه باستخدام آيات القرآن وكانوا يرددون الآية الكريمة «واذكر في الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد».

ما جرى بين «رفاق المنفى» هو ذاته الذي تكرر بين «رفاق التفويض» الثلاثة الذين فوضهم الشعبُ المصري للحديث باسمه: سعد زغلول، وعلي شعراوي، وعبد العزيز فهمي، فبعد الثورة سار كل منهم في طريق بمفرده، فسعد أعلن أن الشعب لا يثق إلا برأيه، وبمن معه، وعلي شعراوي قرر هو وزوجته هدى شعراوي الاستقالة من «الوفد»، أما عبد العزيز فهمي فقد شارك في تأسيس حزب جديد ضم كل المختلفين مع سعد، وصار وزيرا للحقانية، وعدوًّا لسعد زغلول سرًّا وعلانية!

كان يمكن أن تسير الثورة على نحو مختلف لولا التخوين، وتعدُّد الزعامات، وتصلب الرأي، ولولا الخلاف -الذي قصم ظهر الثورة- بين سعد زغلول وعدلي يكن، فكلاهما كان يتزعم فريقًا، وكل فريق يظن أنه يملك الحق الذي لا شك فيه، وأن الفريق الآخر هو الباطل الذي لا ريب فيه.

فسعد أعلن أن مَن يفاوض الإنجليز بغير إذنه، وبعيدًا عن رئاسته هم «برادع الإنجليز»، فدوّت الهتافات تطالب بسقوط حكومة عدلي يكن، بل وصل الأمر إلى أن هاجم المتظاهرون بيت يكن ورموه بالحجارة!

واشتعل الشارع بالمظاهرات الدامية بين أنصار سعد وعدلي، ودفع الشعب الثمن حين سقط ٤٣ قتيلا مصريين، وحاول البعض رأب الصدع، وعلى رأس هؤلاء الأمير عمر طوسون الذي قال: «نحن قوم نريد الاستقلال ونطالب بالحرية، وأساس هذا المبدأ احترام كل فريق رأي الآخر، وإذا لم نحترم هذا المبدأ فلماذا

تشكو من ضغط الإنجليز على حريتنا ومصادرتهم لنا في آرائنا؟!».

لكن أحدا لم يستجب لنداء طوسون، وذهب وفد عدلي يكن إلى المفاوضات، وعمل سعد على إفشال جلسات التفاوض، وإظهار يكن بأنه لا يمثل الأمة، وأنه خارج على إرادتها، ليتصدر الصراع بين سعد وعدلي الصحف الإنجليزية.

وفشلت المفاوضات، وعاد عدلي من لندن، ولما نزل القاهرة ألقت الجماهير على موكبه البيض والطماطم!

لكن الغريب أنه قبل عامين فقط من هذه الواقعة استقال عدلي يكن من الحكومة تضامنًا مع مطالب الثورة، واحتجاجًا على منع سعد ورفاقه من السفر للتفاوض باسم الشعب المصري، وحينها كان من أقرب الأصدقاء إلى قلب سعد زغلول!

لكنها ضريبة الانقسام الحزبي الذي انتهت إليه ثورة ١٩١٩، والذي لم يجرّ الناس إلا إلى الإفلاس السياسي والمالي، وبدأت الجماهير تهمس على المقاهي بالنكات السياسية، ولعل أشهر نكتة خلّدت هذه الفترة كانت تقول: «في أحد المقاهي سأل مواطنٌ مواطنًا آخر:

- أنت عدلست (نسبة إلى عدلي يكن) ولا وفدست (نسبة إلى الوفد)؟

- فقال: أنا فلّست!».

البسطاء الذين رددوا تلك النكتة هم أنفسهم الذين كانوا يهتفون «يحيا سعد»، وحين صار سعد زغلول رئيسًا للوزراء ذهب إليه العربجية يشكون تزايد نفوذ السيارات، وتقلص نفوذ الكارو، فقابلهم وسمع منهم، ثم قال لهم: «إنني عربجي مثلكم،

مهمتي أن أقود العربة كما تقودونها، والفرق بيني وبينكم أنكم تحملون الكرباج وأنا لا أحمله، ونحن الآن في عصر السرعة والسيارة علامة التقدم، وإنها تحل في العالم محل الحنطور، ولا أستطيع كزعيم لهذه الأمة أن أسمح لها أن تتخلف، أن تمشي ببطء في عصر السرعة، وإني أفهم بدلا من أن تطلبوا منع السيارات أن تلزموا الحكومة بأن تنشئ مدرسة لتعليم القيادة.. إن كنتم تريدون أن تتقدم مصر بسرعة العربة الحنطور فسأخضع لرأيكم، وإذا أردتم أن تتقدم بسرعة السيارة أو الطائرة فسوف أفعل ما تأمرون به»، فصاحوا: «بسرعة الطائرة».

لكن الواقع أن مصر لم تسر بسرعة الطائرة ولا سارت بسرعة السيارة بل إنها التزمت بإيقاع سير عربات الكارو، خطوة إلى الأمام واثنتان إلى الخلف، فسعد زغلول الذي أطلق على وزارته «حكومة الشعب» لم يبقَ على كرسيّ رئاسة الوزراء سوى تسعة أشهر فقط.

هذا هو حظ الشعب المصري، فكلما قامت ثورة انتظر الفرج، والفرح، وحلم بحياة أفضل، ورزق أوسع، ومستقبل أجمل، لكن ظلت أحواله كما هي، وربما ساءت، ورغم ذلك لم يفقد الشعب الأمل، وسيظل البسطاء يحلمون بغد أكثر عدلا حتى لو كانوا يرددون مع سعد زغلول عبارته الأشهر «مافيش فايدة»!

تلك العبارة التي تم تداولها على اعتبار أن سعد قالها في أثناء مفاوضاته بعد ثورة ١٩١٩حين أدرك أن الكلام مع الإنجليز لن يأتي بجديد، بينما الحقيقة الثابتة أن الزعيم سعد زغلول قالها حين كان يرقد في فراش المرض، وشعر أن حالته لن تتحسن، وأن الدواء لن يفعل جديدا، فقال لزوجته صفية: «مافيش فايدة»!

والسؤال: هل فعلا مافيش فايدة؟ وهل الحظ والنّحس ملازمان للثورة؟

والجواب: نعم، وقطعًا، فلولا دور الحظ لما نجحت الثورة، ولولا النّحس لما اختلف الثوار!

فمجرد قيام الثورة يشعر الثوار أنهم امتلكوا الدنيا ومن عليها، وأن حظهم من السماء، وأن إزاحة رأس السلطة كافية لتحقيق أحلام الشعب الغائبة، وفي الناحية الأخرى يشعر كل صاحب سلطة ونفوذ ومال وجاه بأنه في مرمى نحسه، وهذا طبيعي لمن قامت الثورة ضده، ولكن المثير للدهشة أن قطاعًا كبيرًا من البسطاء الذين قامت الثورة لتنتصر لهم يشعرون بالاكتئاب، ويظنون أن كل ما يجري لهم ومعهم من أزمات سببه الثورة، كأن الثورة قامت ضد مصالحهم، وليس ضد من طغى وبغى عليهم.

ويزيد هذا الشعور كلما أرجأت الثورة تحقيق أهدافها، خصوصًا أن أغلب الناس سواء شاركوا فيها أو أسهموا في إجهاضها يكونون منتظرين ما ستفعله، إما برفع سقف الطموحات والأحلام والآمال التي لن تتحقق بين ليلة وضحاها، وإما بالسخرية من نتائجها بقولهم «أدي اللي خدناه من الثورة»، فتتحول السعادة المفرطة إلى كآبة مزمنة.

فمبادئ الثورة لا تدخل قلب الشعب إلا بالتدريج، فالشعب يقوم بالثورة من غير أن يعلم سببها، ومتى ساقه الحظ إلى إدراك هذا السبب فإن الثورة تكون قد انتهت منذ زمن طويل!

وشأن الشعوب واحد في الثورات كلها، فهي لا تدرك مغزاها، ولا تدبر أمرها، وإنما القادة هم الذين يحركونها.

هكذا يقول عالم الاجتماع جوستاف لوبون الذي يحلل ما جرى في الثورة الفرنسية، ويكشف روح الثورات، وما يتبعها من أحداث، فمثلما تُظهر الثورة أفضل ما في البعض، فإنها تُظهر أيضًا أسوأ ما في البعض الآخر، فكما تُظهر روح المثالية، والإخلاص، والتضحية، والشجاعة، والمروءة، والإقدام، والقوة، والبهجة، والحماسة، والتسامح، والعدالة، والإنسانية، تُظهر أيضًا الكآبة، والاكتئاب، والجوى، والحرص، والزهو، والغرور، والغل، والضغينة، والحسد، والحقد.

فكثير من رجال الإصلاح والفضل، الذين كانوا موصوفين بالحلم، انقلبوا أيام الهول إلى أناس متعصبين سفاكين للدماء، ولم يكتف الثوار بمقت أعدائهم بل مقتوا أصدقاءهم، وكانوا يصفون بعضهم بالكذب والخيانة، ويتهمون رفقاءهم بأنهم باعوا ضمائرهم، ووقفوا مع الظالم ضد الشعب.

وهذه طبيعة أغلب الثائرين، فحين يعتقدون أنهم على الحق لا يطيقون مسامحة مَن لم يكن على مذهبهم، بل إنهم لا يتورعون عن قتل من يخالفهم الرأي، رغم أن الثورة قامت من أجل الحرية!

الفصل الثاني
كيف تعرف الرئيس النَّحس؟

ما كانت الخرافات لتسود وتتسيّد إلا إذا كانت خلفها سلطة مستبدة تودّ أن ينصرف الناس إلى قراءة الطالع عن قراءة الواقع.

صادقون ولو كذبوا!

في العصر العثماني ظهر شيخ يُدعى أحمد صادومة، وكان رجلا مسنًّا ذا شيبة وهيبة، وأصله من سمنود، وله شهرة عظيمة، وباعٌ طويل في الروحانيات وتحريك الجماد، وكشف الحجاب، ومخاطبة الجان، وكان من أكبر أتباعه الشيخ حسن الكفراوي، مفتي الشافعية، وُجد يزعم أن الشيخ صادومة من الأولياء، وراح يروج له عند الأمراء والحكام.

فجاءت نهاية صادومة على يد أحد هؤلاء الأمراء وهو الأمير يوسف بك الكبير، فقد كان من أشد الناقمين على أصحاب البدع والأباطيل، وحدث أن اختلى هذا الأمير بإحدى جواريه، فاكتشف وجود كتابة على موضع عفتها، فأصابه الذهول فلما سألها عن ذلك، وهددها بالقتل، اعترفت أن إحدى السيدات ذهبت بها إلى الشيخ صادومة، فكتب لها هذه الكلمات ليحبها إلى سيدها فما كان من الأمير إلا أن ارتدى ملابسه، ومضى إلى بيت صادومة، وظل يضربه حتى مات، ثم أحد في تفتيش منزله، وأُخرج منه أدوات السحر والدجل، ومن بينها تماثيل محرمة، وهو يصيح في الناس الذين تجمعوا، ويقول لهم: «انظروا أفاعيل المشايخ»!

لم تكن مجرد حادثة فردية بل كانت نمطًا سائدًا ومتسيدًا، وحاكمًا ومتحكمًا في حياة المصريين، فقد تفشّى الجهل، وسادت الخرافة، وجثم الركود على العقول، واندثرت العلوم، ووقف

لعلماء روح الابتكار والتجديد، وتجمدوا في إطار التقليد، وصار الدجل علمًا، والشعوذة فنًّا.

وقد سجل الجبرتي عشرات الوقائع التي تورط فيها الشيوخ الذين اكتشف الناس أنهم «شيوخ مصر»، من بينها تلك الواقعة التي حدثت في أواخر العصر العثماني حين ظهرت «عنزة» ادعى خادم مسجد السيدة نفيسة، أنه وجدها عند المقام، وسمعوها تتكلم!

وأقبل الناس للتبرك بها، وتقديم النذور، والهدايا لها، فأرسل أحد الأمراء لإحضار العنزة للتبرك بها، فلما وصلت بصحبة الشيخ عبد اللطيف الذي يعمل كبيرا لخدم المسجد أمر الأمير بإدخال العنزة إلى الحريم، فلما أخذوها أدخلوها المطبخ، فذُبحت، وطُبخت، وحضر الغداء، وأكل الأمير، ومعه الشيخ عبد اللطيف، فلما فرغوا، طلب الشيخ العنزة، فعرّفه الأمير أنها كانت بين يديه، وأكلها، فبُهت الشيخ، ووبّخه الأمير وأمر أن يوضع جلد العنزة على عمامته، ويسير في الطرقات، وبين يديه الطبول لفضحه أمام العوام!

هكذا عاش المجتمع المصري في أواخر العصر العثماني واحدة من أسوأ فترات التخلف بعد أن صارت الخرافات جزءًا من الواقع، وصار المنجمون صادقين ولو كذبوا!

فقد صار الناس يصدقون أي شائعة حتى لو كانت تقول «إن يوم القيامة بعد غد»!

نعم، هذا بالضبط ما حدث، فقد أُشيع في الناس أن القيامة قائمة يوم الجمعة القادمة، وفشا هذا الكلام في الناس حتى في القرى والأرياف، وودّع الناس بعضهم بعضًا، وكان يقول الإنسان

لرفيقه: «بقي من عمرنا يومان»! وخرج الكثير من الناس إلى الغيطان والمنتزهات، يقول بعضهم لبعض: «دعونا نعمل حظًّا، ونودّع الدنيا قبل أن تقوم القيامة»، وطلع أهل الجيزة، نساءً ورجالًا، وصاروا يغتسلون في النيل، ومن الناس من علاه الحزن، ومنهم من صار يتوب من ذنوبه ويدعو ويبتهل ويصلي، واعتقدوا ذلك، ووقع صدقه في نفوسهم!

ومن قال خلاف ذلك أو قال إن هذا كذب، لا يلتفتون إلى قوله، وكثر فيهم الهرج والمرج إلى يوم الجمعة المذكور، فلم يقع شيء، وأصبح يوم السبت، فانتقلوا يقولون: «فلان العالم قال إن سيدي أحمد البدوي والدسوقي والشافعي، تشفعوا في ذلك وقَبِل الله شفاعتهم»!

من الثابت والمؤكد أن الأئمة العظام البدوي والدسوقي والشافعي لا علاقة لهم بتلك الأكاذيب، لكن بعض الأفاقين من أدعياء التدين الكاذب استخدموا هذه الأسماء بعينها للتلاعب بعقول الناس، وإيهامهم بسطوة الأولياء، وقدرتهم على التحكم في مصير الكون، والتدخل لتأجيل القيامة!

والمؤسف أن هؤلاء الأدعياء نجحوا في السيطرة على عقول العوام، بل إن تأثيرهم امتد إلى بعض العلماء الذين صاروا يثقون بأي شخص حتى لو كان جاهلا وكاذبا، فمن بين الحكايات الواقعة بين الحقيقة والخرافة أن امرأة تدعى «الشيخة رقية» كانت تطوف على بيوت الأعيان، وتعتقد نساء الأمراء في صلاحها ويسألنها الدعاء، وإذا دخلت على النساء قبّلن يدها، وتبيت معهن، وذات يوم مرضت، وحين لفظت أنفاسها الأخيرة، وأسلمت الروح إلى بارئها، حزن الناس عليها، وذهبت النسوة لغُسلها، وعندما سدّوا

في خلع ملابسها إذا بهن يجدن أنها رجل!

لكن هذه الخرافات والخزعبلات ما كانت لتسود وتسيطر لولا أن خلفها سلطة مستبدة تود أن ينصرف الناس إلى قراءة الطالع عن قراءة الواقع، وأن ينشغلوا بعلم التنجيم بدلا من محاسبة المسؤولين، ومجازاة المخطئين.

هذا ما يريده أي حاكم مستبد، لكن هناك أيضًا حكامًا يؤمنون بالدجل أكثر من شعوبهم، ويطرقون أبواب العرافين، ويستعينون بالمنجمين في إدارة شؤون البلاد والعباد، والتاريخ مليء بقصص الحكام الذين لا يخرجون للمعارك قبل استطلاع رأي النجوم والكواكب، بل إنه في بعض فترات التاريخ كان المنجمون جزءًا من السلطة، ففي العصر المملوكي ذهب أحدهم إلى السلطان وأبلغه أن الأمراء يرغبون في إقامة ابنه سلطانًا بدلاً منه، واقترح عليه أن يتخلص من ابنه!

وبالفعل قام السلطان بدس السم لابنه في الحلوى، وكان سمًّا بطيئًا فمرض ابن السلطان واشتد به المرض، ومات، وحزن السلطان لفراق نجله، واشتد ألمه حتى فارق الحياة في السنة نفسها، ودُفن إلى جوار ابنه!

إنها ضريبة الحفاظ على السلطة، لكن ليته احتفظ بها، أو حتى تركها لابنه، فالسلطة زائلة وإن دامت، فآفة الحكم عند العرب «عاش الملك.. مات الملك»، فما دام الحاكم يجلس على كرسيّ الحكم صار يملك الأرض ومن عليها، وبمجرد أن يشاع رحيله عن السلطة لا يجد من يمنحه كوبًا من الماء.

وهذا ما جرى مع الخليفة الأموي في دمشق، فعندما مات أبلغ الحاجب ولي العهد الوليد بن عبد الملك نبأ موت الخليفة، وكان

يعيش منفيًا في إحدى القرى الواقعة بين العراق والشام، فأمر ولي العهد بأن تُوضع كل متعلقات دار الخلافة في صرر حرير حتى يعود إلى دمشق من منفاه ولكن الخليفة المتوفَّى استيقظ فجأة في المساء وتبين أنه كان في إغماءة طويلة!

وبعد أن تململ في فراشه وتلفّت حوله طلب شربة ماء، فجاءه الخادم بشربة الماء في كوز من الصفيح، وكان للخليفة طاسة من الذهب الخالص يشرب فيها الماء، فطلب الطاسة الذهب ليشرب فيها، ولكن الخادم اعتذر إليه، لأن الخليفة الجديد أمر بتحرير الطاسة مع متعلقات الخليفة، وأمر بعدم استعمال أي شيء منها، فلما سمع الخليفة القديم ما قاله الخادم شهق شهقة طويلة قبل أن يتمكن من أن يشرب شربة الماء، وفارق الحياة!

عرّافة الرئاسة

في ٢٠ أبريل عام ١٩٧١ ذهب ثلاثة من رجال عبد الناصر إلى جلسة «تحضير أرواح» لاستشارة الجن في مستقبلهم السياسي!

الثلاثة هم: الفريق محمد فوزي وزير الحربية الأسبق، واللواء شعراوي جمعة وزير الداخلية الأسبق، وسامي شرف سكرتير الرئيس عبد الناصر، وقد تم تسجيل الجلسة!

وما حدث في ٢٠ أبريل تكرر في ٤ مايو من نفس العام، وتم تسجيله أيضًا، ويومها قام الرئيس السادات بإرسال التسجيلات في منتصف الليل مع ابنته إلى الأستاذ محمد حسنين هيكل، لينشر نص التسجيلات التي تُدين رجال عبد الناصر في جريدة «الأهرام»، لكن هيكل تردد في نشرها، وذهب إلى المفكر الكبير توفيق الحكيم ليطلعه عليها.

ويروي هيكل تفاصيل ما جرى بقوله: «أعطيت توفيق الحكيم جلستين من جلسات تحضير الأرواح منقولتين بالحرف على الورق كما نطقت بها أصوات أصحابها على أشرطة التسجيل المغناطيسية وقرأ توفيق الحكيم، ثم قال لي: لو أنني كتبت مثل هذا في رواية لاتهمني الناس بأنني شربت نهر الجنون إلى آخر قطرة. ثم شرد لدقيقة مع خواطره، وعاد يقول: إنني مع النشر.. إن أسبابك للنشر أقوى من أسبابك في الامتناع عنه». هنا قرر هيكل النشر.

قد نُصدِّق الواقعة وقد نرى أن التسجيلات مُختلَقة، لكن الثابت الوحيد أن لدينا على هذه التسجيلات شاهدين هما: توفيق الحكيم ومحمد حسنين هيكل، وهناك ثلاثة أسباب تؤيد صحة هذه الواقعة:

أولها- أن الرئيس السادات اختار هيكل دون غيره ليرسل إليه التسجيلات التي ستكون مبررًا في تصفية رجال عبد الناصر، وذلك قبل أن يصلا إلى مفترق طرق في عام ١٩٧٤.

ثانيها- أن الأستاذ هيكل اختار توفيق الحكيم ليكون شاهدًا على التسجيلات، رغم أنه بعد عام واحد فقط من نشر التسجيلات صار كلاهما طرفًا في معركة كبيرة بسبب هجوم الحكيم على عبد الناصر في كتابه «عودة الوعي»، ويومها وقف هيكل ضده وهاجمه، وقال عنه «لم يكن هناك أسبق منه إلى حرق البخور أمام عبد الناصر»!

ثالثها- أن الدجال (وكان يعمل أستاذًا جامعيًا!) الذي ذهبوا إليه أوحى إليهم بأن يتقدموا باستقالاتهم، بهدف عمل فراغ دستوري، ليضعوا السادات في مأزق يضطر بعده إلى الرضوخ لهم، وقد فعلوا ذلك بالفعل في ١٥ مايو، أي بعد الجلسة الثانية لتحضير الأرواح بـ١١ يومًا فقط، لكن العرّاف لم ينفعهم، فالسادات مثلما استطاع أن يخترق الجلسة بوضع أجهزة «التنصُّت» في حضرة ملك الجن، يبدو أنه «جنَّد» العرّاف نفسه، لينصحهم بتقديم استقالاتهم التي كان في انتظارها، فقَبِلَها على الفور، وأصدر قرارًا باعتقالهم، وبرر ذلك بعبارته الشهيرة «ذُول المفروض يتحاكموا بتهمة الغباء السياسي»!

الخرافة لا حدود لها، ولا يؤمن بها إلا الحمْقى والمغفلون،

والعاجزون عن العمل، والخائفون على نفوذهم من ذوي القدرات الضعيفة.

هؤلاء يدركون أنهم وصلوا إلى السلطة في غفلة من الشعب، وأن استمرارهم في مناصبهم مرهون باستمرار هذه الغفلة، لذلك يرون أن قراءة الطالع أهم كثيرًا من قراءة الواقع، وأن القوى الغيبية وحدها تستطيع إبقاءهم في مناصبهم وتحفظ لهم نفوذهم السياسي الذي لم يتحقق وفقًا للمنطق، وإنما تحقق بغياب المنطق! بينما مَن وصلوا إلى السلطة بعد صراعات كبرى لن تجدهم يؤمنون بالخرافة، فالرئيس السادات كان يسخر من العرافين، وكان يرفض التسليم لهم أو الجلوس معهم، وذات مرة طلبت منه حرم الرئيس الإسرائيلي «حاييم هرتسوج» أن تقرأ له الكف، فاعتذر إليها، وقال: «أنا لا أحب هذه الممارسات».

بينما كانت زوجته السيدة جيهان تنتظر رأي العرافين، فقد قيل إنها كانت تستعين بهم دائمًا، بل إن هناك واقعة شهيرة عن نبوءة عرافة لها بأنها ستصبح سيدة مصر الأولى، وقالت لها العرافة إنها ستصبح ملكة مصر في الوقت الذي كانت فيه هي وزوجها -المفصول من الجيش- يبحثان عن أجرة البيت، فاستغرق في الضحك من سذاجة هذه العرافة.

لكن الغريب أن إحدى العرّافات اليهوديات تنبأت في ١٩٨١ بقتل الرئيس السادات قبل نهاية العام، وقد نشرت الصحف الإسرائيلية هذا الكلام وقتها!

ومثلما كان السادات لا يؤمن بالخرافات كان عبد الناصر، لكنه كان يتعامل مع العرافين والسحرة لتسلية ضيوفه، ومن بينهم الشيخ محمد لبيب، الذي كان يستدعيه لتسلية الضيوف بألعابه

العربية، وليست فيها خدعة واحدة، فكلها عيني عينك -على حد تعبير أنيس منصور- فهو يضع الكوب في جيبك ويستخرجه من جيب أي أحد من الحاضرين، ويلقي بالكوتشينة إلى السقف فتستقر هناك ويستدعيها ورقة ورقة، وقد طلب ذات مرة من السيدة أم كلثوم خاتمها في حضور عبد الناصر فرفضت، فأخذه من وجه الدكتور حسن الحفناوي ووضعه في كوب من الماء وألقاه من النافذة وطلب منها أن تبحث عنه في حقيبة يدها، فرفضت دخول العفاريت في شنطتها، وأشارت ناحية أنيس منصور الذي كان موجودًا بين الحضور وقالت: «عندك أنيس وكلكم عفاريت زي بعض!» وأخرج الخاتم من جيبه!

لكن على عكس عبد الناصر والسادات كان مبارك، فقد كان يؤمن بالعرافة إلى حد الهوس، فعلاقته بالعرافين بدأت في نهاية الخمسينيات عندما كان ضابطًا في السودان والتقى مع عرّاف سوداني تنبأ له بأنه سيصبح رئيسًا لمصر، في الوقت الذي كان لا يتعدى طموحه السياسي أكثر من محافظ أو سفير، وهو ما جعله يأخذ الأمر بجدية عندما تم تعيينه نائبًا للرئيس السادات، فقد قيل إنه كان يتردد على عرّافة في مصر الجديدة تقرأ له الطالع.

كان يمكن أن تظل المسألة سرًا، وأن لا يعلم أحد شيئًا، لكن «أم ماجد» السيدة البدوية، ذهبت إلى مبارك في مستشفى شرم الشيخ بعد ثورة ٢٥ يناير، ودخلت إلى حجرته في الوقت الذي كان فيه المستشفى أقرب إلى ثكنة عسكرية، وكان مبارك يقيم تحت الحراسة المشددة، وبالتالي فإن وصول أي شخص إلى المستشفى -لا إلى غرفة الرئيس المخلوع- يُعدُّ عملاً خارقًا للطبيعة.

دخول «أم ماجد» إلى غرفة مبارك من المؤكد أنه تم بناءً على

دعوة من سوزان مبارك، لأنه ليس طبيعيًا أن تذهب العرافة في هذا التوقيت دون أن يطلبها أحد، ويبدو أنها جاءت في مهمة محددة وعاجلة، وهي أن تقرأ الطالع لمبارك وتخبره بالمستقبل الغامض الذي يسطره.

إنها عرافة الرئاسة التي كان يلجأ إليها الرئيس وزوجته في الأزمات، ولم يكن ممكنًا في أزمتهما الكبرى أن يسيرا دون مشورتها ليفتضح أمر الرئيس والعرافة.

إيمان مبارك بالعرافين لم يقتصر على من هم داخل البلاد، ففي عام ١٩٨٢ كان مبارك في باريس حين أحضر له الدكتور بطرس غالي منجّمة فرنسية كانت شهيرة في أوساط الدبلوماسيين، وقالت المنجّمة لمبارك ضمن نبوءات أخرى كثيرة: «ستموت في السنة التي تعيّن فيها نائبًا لك»، ويبدو أن هذا هو السبب الرئيسي الذي جعل مبارك يرفض طيلة حكمه تعيين نائب له.

وقيل إن هناك سببًا آخر وهو أن جمال عبد الناصر اختار السادات ليكون نائبًا له، لأنه كان أقل ذكاءً منه، واختار السادات مبارك نائبًا له لنفس السبب، أما مبارك فلم يعين نائبًا، لأنه لم يجد من هو أغبى منه! انتهت النُّكتة، رغم أن الواقع أكثر سخرية.

الرئيس من برج «الثور»!

في أحد أيام شهر مايو عام ٢٠٠٨ فوجئ محمد علي إبراهيم رئيس تحرير جريدة «الجمهورية» باتصال من وزير الداخلية حبيب العادلي.

وكان اتصال وزير الداخلية يعني أن شيئًا كارثيًا يتعلق بالأمن القومي قد حدث، ويريد أن يبلغه لرؤساء التحرير بنفسه، لكن بمجرد أن انفتح الخط سأل وزير الداخلية رئيس تحرير الجمهورية بحدة: «هل قرأت الجريدة النهارده؟»، فأجابه بصوت خفيض: نعم، فسأله بنبرة أكثر حدة: «هل قرأت الأبراج؟.. هل طابعت المكتوب في برج الثور؟!»، وقبل أن ينطق محمد علي إبراهيم استطرد العادلي قائلا: هذا برج سيادة الرئيس وأنتم كتبتم «مستقبل مظلم، وشقاء في الدنيا، وغير ذلك».

حاول رئيس التحرير أن يشرح لوزير الداخلية أنه لا يقرأ هذا الباب، وأن باب الحظ يوازن بين التشاؤم والتفاؤل، وأنه يعلم أن عيد ميلاد الرئيس في ٤ مايو لكنه لا يعرف أن هذا التاريخ يندرج تحت برج الثور.

وانتهت المكالمة، وأغلق الخط.

وبعدها بخمس دقائق اتصل سكرتير الرئيس مبارك، وسأل رئيس تحرير «الجمهورية» نفس الأسئلة التي سمعها من وزير الداخلية،

وأجاب بنفس الإجابات، لكن سكرتير الرئيس كان حاسمًا وقاطعًا، وأنهى الكلام هذه المرة قائلا: «اقرأ باب الحظ بنفسك بعد ذلك، وهذا الخطأ يجب أن لا يتكرر».

بعدها قرر محمد علي إبراهيم، حرصًا على تجنب «وجع الدماغ» -على حد تعبيره- إلغاء باب الحظ في الجريدة، لكنه فوجئ باتصال يأمره بعودة باب الحظ مرة أخرى.

وعاد باب الحظ لكن بعد أن أمر السيد رئيس التحرير كاتب هذا الباب بأن يغرق في التفاؤل والأحلام الوردية والأموال المنتظرة التي ستهبط من السماء.

المدهش أن هذه الواقعة رواها رئيس تحرير «الجمهورية» بنفسه لكن بعد ست سنوات، وثورتين!

فجأة، وفي غفلة من البعض، وجهل من البعض الآخر، تحول باب «حظك اليوم» في الصحف من باب للترفيه وإضفاء البسمة، وإعطاء الأمل، وصناعة التفاؤل إلى باب للدجل والنصب والشعوذة والنفاق!

فلم يخطر ببال مبتكر هذا الباب أنه سيتحول من باب الحظ إلى باب النفاق، فبعد أن علم رئيس تحرير «الجمهورية» قيمة ما يمثله باب الأبراج صار هو بابه المفضل، وصار يطالع المكتوب في برج «الثور» قبل أن يطالع مانشيتات الصفحة الأولى، لذلك في عيد ميلاد الرئيس كان العبارة الثابتة هي «حب الناس لك لا يأتي من فراغ»، في إشارة إلى حب الناس لمواليد البرج الذي ينتمي إليه الرئيس الأسبق.

وظلت الصحيفة على عهدها ووعدها، منفِّذة للتعليمات،

مستجيبة للتوجيهات، وأبراجها تسير بناءً على رغبات السيد سكرتير السيد الرئيس!

وما تفعله «الجمهورية» تكرره جريدة «الأخبار»، بل إنها كانت دائمًا ما تزايد على الجميع في أبراج النفاق -لاحظ سابقا- فكانت تبشر الرئيس بالصحة الجيدة والمشروعات الجديدة، وفي آخر عيد ميلاد لمبارك قبل ثورة يناير قالت له: «نشاط العقل، وتمتلك كمًّا هائلا، ومتنوعًا من الأفكار».

أما جريدة «الأهرام» فقالت أبراجها للرئيس: «يرضى عنك الجميع.. وتحصل على كلمات الثناء». لكن المدهش كان ما فعلته جريدة «الوفد» التي قالت أبراجها للرئيس السابق في عيد ميلاده: «طبيعة برجك ترابي.. وشوف إنت فائدة التراب.. ينمو فيه الزرع الأخضر.. علشان كده طريقك أخضر ومزهزه بإذن الله»!

ما جرى مع المخلوع مبارك، كاد يتكرر مع المعزول محمد مرسي، لكن لم يمر عليه سوى عام في السلطة، ولم يحتفل سوى بعيد ميلاد واحد فقط في قصر الرئاسة.

ولكن بعد ثورة ٣٠ يونيو تركزت جهود كُتاب الأبراج في الصحف على برج «العقرب»، وأكدوا جميعًا أن مواليد هذا البرج هم أبطال المشهد وأن حظهم هو الأعلى، وأن التوفيق يصاحبهم أينما حلوا -وفقًا لعلماء الفلك- وأن هناك تغيرًا إيجابيًّا لمواليد شهر نوفمبر، ومن يصادف رقم ١٩ في ميلاده يجعله الأكثر حظًّا.

بل وأسهب العرافون في الحديث عن صفات مواليد برج «العقرب» قائلين عنه: «إنه النجم الذي تدور من حوله الكواكب، فهو منظم جدا في أفكاره وفي سلوكه وهو شديد الذكاء وشديد الإصرار على إصابة أهدافه، ولا يكلّ، ولا يملّ، ويجمع بين الشجاعة والحذر. في

«الأبراج الفرعونية هو (هابي) إنه النيل وكلمة هابي في الهيروغليفية تعني السعيد أو جالب السعادة. وهو لا يحب الصراعات ويعرف أغلب الوقت أن يتحاشاها، وبهدوء يتجنب الظروف والناس غير الملائمين له، وفي نفس الوقت يعرف كيف يضع الحدود وقت الضرورة»!

بالطبع وبالقطع كل قراء الطالع من السادة المنجمين يقصدون شخصًا واحدًا فقط بهذه الأوصاف رغم أنه من المؤكد أن يوم ١٩ نوفمبر لم يولد فيه شخص واحد بل مئات المصريين، وربما آلاف، ولكن المُنجمين لا يعنيهم هذا أو ذاك وإنما يعنيهم فقط أن يسمعهم ويرضى عنهم شخص واحد فقط اسمه الرئيس عبد الفتاح السيسي.

لعبة الأبراج صارت أكثر طرق النفاق السياسي رواجًا، سواء في الصحف أو على شاشات الفضائيات، فالمُنجم الذي سيقول ما يريد أن يسمعه الرئيس ومن حوله هو الصنف الأهم، والأقرب إلى قلب صناع الإعلام.

فقد صارت قراءة الطالع جزءًا أصيلا في البرامج السياسية، والمنجمون صاروا نجومًا، فالناس يريدون أملا، وإن كان كاذبًا، ونجوم الفضائيات يريدون إعلانات، وإن كانت بالدجل والشعوذة، وصار الإعلان عن علماء الفلك الذين يعرفون كل شيء، وأي شيء، يعلمون أفضل توقيت للرواج، وما يحدث في العمل، والمال الذي سيأتي، والبنين الذين سيأتون، والفرحة التي ستدق الأبواب، ودرجاتك في الامتحان.

إذا أردت أن تعرف كل ما سيحدث لك اتصل فقط.

إنها أحدث طرق النصب، التي صار يفصلها بعض النكرات

علماء، وبعض المفلسين أعيانًا، وبعض الدجالين مفكرين!

حتى ذات أبواب الحظ كانت بمثابة جزء من الموضوعات الترفيهية التي تقدمها الصحيفة، ويحررها كتاب ساخرون لرسم ابتسامة على القارئ صباح كل يوم، ولم يكن يدّعي كاتبها أن له علاقة بالفلك أو حتى بشارع الفلكي!

كان الهدف هو بث التفاؤل في نفوس القراء وإعطاؤهم الأمل وصناعة البهجة ما دام المنجمون في كل الأحوال كذابين حتى ولو صدقوا!

وبعد سنوات وتحولات كبرى صارت هذه هي لعبة الإعلام المضلل، بل صارت مهمته الترويج للأساطير والخرافات، وتضخيم الصغراء، وتصغير الكبراء، وبث الشائعات، وصناعة بطولات مزيفة، وأبطال من ورق، ومفكرين لا يفكرون إلا أمام الكاميرات، ومحللين لم يُصب أحدهم يومًا وهو يقدم تحليلاً يعتمد على العلم لا على الخرافة.

مرسي راجع!

اليوم: الأربعاء، الرابع عشر من نوفمبر عام ١٩٥١ جرت وقائع أول مظاهرة مليونية عرفتها مصر.

«أكثر من مليون يشتركون في أكبر مظاهرة شهدتها البلاد، الشعب كله برجاله ونسائه يصب لعنته على الإنجليز المعتدين الغاصبين». هكذا وصفت المشهد جريدة «الأهرام»، المظاهرة التي كانت تضم كل فئات المجتمع -إن لم يكن المجتمع بأكمله- فالقاهرة حينذاك كان يسكنها ثلاثة ملايين فقط، وقد تقرر في يوم التظاهرة الكبرى وقف المواصلات، وإغلاق المتاجر، ومحال بيع اللحوم، وتقرر أن يرتدي رجال الدين الأقباط الملابس الحائرية حداداً على أرواح الشهداء، وأن يرتدي أعضاء البرلمان والقضاة وأساتذة الجامعة المشتركون فيها الأوسمة والأوشحة والملابس الجامعية.

وتصدر المظاهرة رئيس وزراء مصر مصطفى النحاس باشا بعد أن قرر في أكتوبر إلغاء معاهدة الصداقة «البريطانية - المصرية» المعروفة باسم معاهدة ١٩٣٦، وقال كلمته الشهيرة: «لقد وقعت معاهدة ١٩٣٦ من أجل خير مصر ثم ألغيتها من أجل خير مصر، لقد بلغ الكتاب أجله».

في هذا التوقيت كان أنور السادات يسرد تفاصيل ما أطلق عليه «صفحات مجهولة»، ذلك الكتاب الذي صدر بعد ثورة يوليو، وكان يروي فيه قصته مع حسن البنا، ودور الإخوان في التمهيد

ثورة يوليو، لكن هذا الكتاب لم يُطبع مرة ثانية رغم أن مقدمة الكتاب كانت بقلم الرئيس جمال عبد الناصر!

في نفس العام رُزق فلاح مصري من محافظة الشرقية يدعى محمد مرسي بطفله الأول، الذي لم يجد له اسمًا إلا أن يسميه على اسمه!

لكن هذا الرجل البسيط الذي كان يحرث أرض أحد الأعيان، صار يملك الأرض التي يحرثها بعد أن صدرت قوانين الإصلاح الزراعي، فقرر أن يُعلم نجله ليصل إلى أعلى المراتب.

فقد كان يشعر الأب أن ابنه الأكبر فأل حسنًا عليه، وسيكون له شأن عظيم، فذهب به إلى المدرسة، وكان متفوقا في دراسته، واستفاد من مجانية التعليم التي أقرتها الثورة، حتى صار طالبًا بكلية الهندسة بجامعة القاهرة، ثم عُين معيدًا بعد أن حصل على تقدير امتياز مع مرتبة الشرف، ثم نال درجة الماجستير.

وفي هذا التوقيت تعرف على بعض أعضاء جماعة الإخوان، وصار مُحبا لها، حتى انضم إلى تنظيمها الرسمي في عام ٧٩، وحينها حصل على منحة من جامعة جنوب كاليفورنيا، وظل هناك لسنوات حتى حصل على الدكتوراه، وكانت علاقاته مقصورة على أسرته ومحاضراته ولقاءاته، وبعض أعضاء جماعة الإخوان الموجودين بجوار مكان إقامته، لذلك كانت مهاراته في اللغة الإنجليزية مقصورة على كتابة الأبحاث العلمية، لكنّ أحدًا لم يلتفت إلى ذلك، فالمصريون في كل مكان، وهناك عدد كبير منهم لا يجيد لغة البلد الذي يعيش فيه.

وحين عاد إلى القاهرة عمل أستاذًا بكلية الهندسة جامعة الزقازيق ليبقى قريبًا من بيته وأسرته، وفي الوقت ذاته يمارس المهام

المكلف بها من الجماعة، وبالفعل ظلت حياته هادئة مستقرة حتى سن الستين، ورغم تعرضه للاعتقال أكثر من مرة فإنه في كل مرة كان يدرك (مرسي) أنه «راجع» إلى بيته، وبالفعل تمر شهور قليلة ثم يعود إلى «بيته» ومحاضراته بالكلية.

لكن بعد أن أتم محمد مرسي عامه الأول بعد الستين، صارت جماعة الإخوان أكبر تنظيم في مصر، وصار هو مرشحًا ليكون رئيسًا لحزب «الحرية والعدالة» الذراع السياسية لـ«الإخوان»، وبالفعل تم اختياره، لكن في ذات التوقيت كانت انتخابات الرئاسة على الأبواب، وكانت الجماعة قررت ترشيح خيرت الشاطر، نائب المرشد العام، ليكون مرشحها للرئاسة، لكنها في ذات اللحظة قررت أن ترشح شخصًا آخر يكون بديلا في حال استبعاد مرشحها الأول!

لذا لم يصدق أحد من تلاميذه أن الأستاذ الذي لم يستطع ضبط إيقاع محاضرة واحدة له طوال ما يزيد على ثلاثين عاما يمكن أن يصبح رئيسًا لمصر!

فعلى الرغم من سنوات عمله الطويل في مصر وخارجها فإنه لم يستطع أن يُحكم سيطرته على طلابه في كلية الهندسة، فكان يفصل بين البنات والبنين كي يستطيع أن يضبط المفلت منهم، لكن الدكتور مرسي كان في حاجة إلى ثلاث معجزات كي يدخل الانتخابات الرئاسية ويفوز:

الأولى- أن يتم استبعاد خيرت الشاطر، الرجل الأقوى والمرشح الأول لجماعة الإخوان، رغم أن الجماعة قد راهنت عليه بكل ما أوتيت من قوة تنظيمية، وجهزت كل شيء كي ينجح ويكتسح، وأطلقت عليه «مهندس مشروع النهضة»، ونعتته بأوصاف عديدة منها أنه «يوسف هذا العصر» تشبيهًا له بسيدنا يوسف- ووزعت

لافتات تأييده عى كل المحافظات، وملأت بها جدران الشوارع من الإسكندرية حتى أسوان.

الثانية- أن يختفي حازم أبو إسماعيل قبل الانتخابات، فمجرد دخوله الانتخابات كان يعني فوزه، بهذا كان يؤمن أغلب المنتمين إلى الجماعات الإسلامية المختلفة، وبالتالي فلا يمكن منافسته، بينما يمكن التفاوض معه.

الثالثة- أن يذهب عمر سليمان إلى لقاء ربه قبل الانتخابات!

وبالفعل حدثت المعجزات الثلاث، لكن على نحو مختلف، فقد قررت اللجنة المشرفة على الانتخابات الرئاسية استبعاد الثلاثي الأقوى الشاطر وأبو إسماعيل وسليمان لأسباب مختلفة لم يقتنع بها أنصار الثلاثة، لكنهم رضخوا، وبدؤوا يبحثون عن بديل، ولكن بعد فوات الأوان، فلم يكن هناك بديل إلا شخص واحد فقط طرحته القوى المتحالفة تحت شعارات دينية وهو محمد مرسي.

وفجأة وجد الدكتور مرسي نفسه حديث الصباح والمساء، والمرشح الأول لجماعة الإخوان، ولكن لم يكن هذا كافيًا لفوزه في الانتخابات، فقد كان يحتاج إلى معجزة جديدة، وهي أن يكون منافسه في مرحلة الإعادة رجلاً فرصه في الفوز تكاد تكون معدومة، وبالفعل صار خصمه هو أحمد شفيق، الرجل الذي لا يمتلك أي مهارات سوى الحديث عن نفسه باعتباره الرجل الذي قام بعمل إصلاحات كبيرة في مطار القاهرة، بالإضافة إلى خلفيته العسكرية.

لكن القوى الثورية قررت أن تنتصر لمبادئها رغم خلافها التاريخي مع الإخوان، وتعلن الحرب على شفيق مرشح نظام مبارك، وتدعم مرسي في معركة الانتخابات الرئاسية، ليصبح بفارق بسيط، ويدخل قصر الاتحادية بصحبة أهله وعشيرته تاركًا قوى

الثورة تلهث خلف الأبواب.

فرغم أن شهر أبريل كان برج سعده، إذ فيه تم اختياره رئيسًا لحزب «الحرية والعدالة»، وفيه أيضًا تم قبول أوراق ترشحه لرئاسة الجمهورية، فإنه في نفس الشهر ولكن في العام التالي ظهرت حركة «تمرد» في يوم الجمعة ٢٦ أبريل ٢٠١٣ في ميدان التحرير في القاهرة، وقامت بجمع توقيعات لعزله وإسقاطه، والغريب أنه في أبريل أيضًا وبعد عامين صدر أول حكم قضائي ضده بالسجن المشدد لمدة ٢٠ عامًا!

لم يكن أشد المتفائلين من المحبين لمحمد مرسي يتوقع أن يصبح رئيسًا لمصر -قبل عام واحد من انتخابه- وربما هو نفسه لو سمعها من أحد أصدقائه لاعتبرها مزحة، وضحك من أعماق قلبه، فهو لم يسعَ إلى المنصب، لكن كرسيّ الحكم هو الذي سعى إليه.

لم يختره أحد للمنصب، لا هو رغب وتقدم من تلقاء نفسه، ولا جماعته جعلته مرشحها الأول، ولا الذين اختاروه كان هو اختيارهم الأول، لكن عدم استعداده للمنصب كلّف جماعته أغلى ما تملك، وهو تاريخها الطويل، فبعد أن ظلت خمسة وثمانين عامًا تحلم بالوصول إلى السلطة، هذا الحلم الذي راود مؤسسها كثيرًا، وكانت تظن أنها ستمكث في السلطة إلى يوم يبعثون، وعلى المعارضة أن تموت بغيظها، أبى حظ محمد مرسي أن يخدمه للنهاية.

هذا رجل جاءت به ثورة، وأطاحت به ثورة، وخرج من السجن ليذهب إلى القصر، وغادر قصر الرئاسة عائدًا إلى السجن.

لا أتحدث عن مرسي وجماعته، وحكمه، وفشله، وما فعله، وما فُعل به، لكني أتحدث فقط عن رجل ذهب إليه الحظ طائعًا،

لكنه رفضه قاطعًا!

وحين ترفض الحظ الذي يطرق بابك، فعليك أن تستقبل النَّحس الذي سيطيح بأحلامك.

هذا بالضبط ما جرى مع محمد مرسي، فبعد أقل من أربعين يومًا على وصوله لكرسيّ الحكم قام بإصدار أفضل قرار اتخذه طوال عام في السلطة، وهو عزل المشير محمد حسين طنطاوي من منصبه، لكن في ذات التوقيت كان أمامه أن يختار شخصًا واحدًا فقط من بين أكثر من أربعين شخصًا، كلهم يصلحون، ومؤهلون، ولا خلاف عليهم أو بينهم على الأصلح.

كان المرشحون لخلافة محمد حسين طنطاوي كثيرين، فالمجلس العسكري مليء بالشخصيات المؤهَّلة والمعروفة إعلاميًّا، والتي اختبرتها جماعة الإخوان كثيرا خلال فترة حكم المجلس العسكري.

ربما كان المرشح الأبرز والأوفر حظًّا هو الفريق سامي عنان فهو القيادة الأكبر سنًّا، وصاحب الرتبة الأعلى، لكنه استبعده منذ اللحظة الأولى ليخرج مع المشير طنطاوي من باب واحد.

لكن أيضًا كان أمامه اللواء محمد العصار، أحد أبرز المرشحين للقيادة العامة خصوصًا أنه كان على صلة بالجميع، وكان الهدوء هو السمة الغالبة على شخصيته، وبالتالي ظن البعض أنه الأقرب، لكنه أيضًا أبعده.

واختار رجلاً لم يكن أحد من العامة قد سمع باسمه من قبل، رغم أن أغلب الشخصيات العامة والإعلامية كانت تذهب إليه وتتحدث معه منذ ثورة ٢٥ يناير، لكن كان في المكان الأكثر أمنًا وبُعدًا عن الصراعات القائمة والأحداث المشتعلة، فمكتبه كان

يحتوي الجميع، ولا يخرج أحد منه إلا مبتسمًا وسعيدًا.

كان رئيسًا للمخابرات الحربية، حيث لا أحد يعرف شيئًا عما يجري داخل هذا المبنى أو هذا المكتب على وجه التحديد.

دماثة خلقه، ورقة حديثه، ودفء عاطفته، واحتواؤه للمختلفين معه وعنه جعلته الأقرب إلى عقل الرئيس وجماعته التي ظنت أنه منها، بل وسربت هذا الانطباع إلى الجميع.

كانت الخيارات كثيرة ومتعددة ومتنوعة لكنه اختار الخيار الأصعب، وأصر على أن يكون الاختيار من خارج الصندوق، وأن يأتي برجل يعيش في الكواليس، ولا يظهر على مسرح الأحداث، وتديُّنه يشهد به كل من عرفه.

اختار مرسي الفريق عبد الفتاح السيسي ليكون وزيرًا للدفاع خلفًا للمشير طنطاوي، كان يظن -وبعض الظن إثم- أنه عضو في جماعته لكنه متخفٍّ خلف بدلته العسكرية، فقرر أن يأتي به ليثبّت حكمه، ويحمي عرشه، ويُبعد أعداءه، ويقوّض معارضيه، وينتصر له ظالمًا أو مظلومًا، وليكون رهن إشارته.

المدهش أن حبيب العادلي، وزير الداخلية في عصر مبارك، قال إنه كان يراقب اللواء عبد الفتاح السيسي، لأنه كان يشك أنه إخوان، وأنه بعد أن أتى به محمد مرسي وزيرًا للدفاع تأكد ظنه... لكنه بعد ذلك خاب ظنه، مثلما خاب ظن الإخوان!

لكن الواقعة الأكثر دهشة تلك التي رواها الدكتور أيمن نور الذي كان مستشارًا للرئيس محمد مرسي، وهي أنه ذهب إلى محمد مرسي عقب الإعلان الدستوري الذي أصدره في نوفمبر ٢٠١٢ -والذي كان بمثابة القشة التي قصمت ظهر الإخوان وهزت كرسيّ الرئاسة

وطلب منه أن يقوم بتغيير رئيس الحكومة الدكتور هشام قنديل، وصرح عليه أحد شخصين يصلحان لرئاسة الوزراء: محمد البرادعي وعمرو موسى، لكن مرسي رفض قاطعًا، ثم أردف قائلًا: «طب إيه رأيك يا دكتور نور تبقى أنت رئيس الوزراء؟»، فوافق أيمن نور، وقال: «يا سيادة الرئيس من هم الوزراء الذين تريد إبقاءهم في الحكومة؟»، فردّ عليه مرسي قائلًا: «وزير واحد فقط يهمني أن يبقى»، فقال له نور: من؟ فأجاب مرسي: عبد الفتاح السيسي!

الفصل الثالث
برج الحظ

الخط وحده يلعب دور البطولة مع الكوميديان، فيمكن أن يقول كل شيء ولا يُضحك أحدًا، ويمكن أن لا يتكلم مطلقًا ويُسقط الجمهور على الأرض من الضحك!

لعنة المضحكين

كانت نجمة ملء السمع والبصر، لها مئات الأعمال الفنية بين السينما والمسرح والتليفزيون، وتعد واحدة من أكثر الفنانات حضورًا في تاريخ السينما من حيث عدد الأفلام التي شاركت فيها، فلم تكن تعرف وقت الفراغ، وأغلب سنوات عمرها قضتها داخل الاستديوهات، وأمام الكاميرات.

ولكن حين مرضت انزوت عنها الأضواء، ولم يعد يسأل عنها أحد، وتجاهلها منتجو السينما، ومخرجو التليفزيون، ورفاق العمر من الفنانين، وتدهورت أحوالها المادية، ودخلت دائرة النسيان، لدرجة أنها لجأت إلى القضاء تشكو مُخرجًا استبعدها في آخر لحظة من تسجيل دورها في أوبريت لزكريا أحمد، بعد تلك الواقعة قررت أن تعيش على هامش الأضواء والنجومية، فباعت أثاث منزلها كي تشتري طعامًا!

وفجأة سأل عنها الرئيس السادات، وتعجب من عدم إدراج اسمها بين الفنانين المقرر تكريمهم في العيد الأول للفن عام ١٩٧٦، ولم يجد منظمو الحفل ما يبررون به هذا السهو غير المقصود في حق فنانة كبيرة أسعدت الملايين.

ودعاها الرئيس السادات لتكريمها، فلم تجد في دولاب ملابسها فستانًا مناسبًا، لكنها حضرت الحفل بعد تدبير جيب وبلورة، ومنحها شيكًا بألف جنيه، ومعاشًا استثنائيًا مدى الحياة، ورقم

هاتفه الخاص للاتصال به إذا كانت في حاجة إلى مساعدة.

لكنها لم تتصل، كان يكفيها أن تشعر بالتقدير، وأن سنوات عمرها لم تذهب أدراج الرياح، وأن الملايين الذين تسببت في إسعادهم لم ينسوها، فعادت إلى منزلها الذي يقع في شارع حسني متفرع من «عماد الدين» بوسط القاهرة، وقلبها يرقص من الفرحة والسعادة، لأنها سوف تسدد ما تراكم عليها من ديون وتعيش بقية أيامها مستورة.

وتذكرها المخرجون والمنتجون ورشحوها لأعمال سينمائية، لكنها رفضت بكبرياء تسوُّل العمل، وبعد شهور من تكريمها تدهورت حالتها الصحية، وظلت تصارع المرض، ونصحها البعض بالاتصال بهاتف الرئيس لعلاجها على نفقة الدولة، لكنها أبت بعناد حتى لفظت أنفاسها الأخيرة.

إنها الوديعة المبدعة صانعة البهجة وصاحبة السعادة زينات صدقي التي تألمت في سنوات حياتها الأخيرة بقدر ما أسعدت الناس طوال عمرها الفني، لكن هذا هو حال الكوميديان الحقيقي، فمقابل كل ابتسامة ترتسم على شفتيه تنحدر دمعة داخل قلبه، والحزن العظيم نتيجة هموم عظيمة، و«الهموم العظيمة لا تسكن إلا نفوسًا أعظم» مثلما يقول محمود السعدني.

وما جرى لزينات صدقي جرى أيضًا لرفيق دربها الفني عبد الفتاح القصري الذي كان يقف على خشبة المسرح أمام صديقه إسماعيل ياسين، وفجأة صرخ قائلا: «أنا مش شايف حاجة.. أنا عميت.. أنا عميت»!

ويبكي القصري متأثرًا، وينفجر الجمهور ضاحكًا ظنًا منهم أنه يقول «إفيه» خارج النص كعادته!

لكن صرخة القصري على المسرح كانت حقيقة أدركها إسماعيل ياسين، فسحبه إلى الكواليس، وكانت تلك هي المرة الأخيرة التي يقف فيها على المسرح، فبعد أن فقد بصره طلبت زوجته الشابة الطلاق بعد ما جعلته يوقّع على بيع كل ممتلكاته لها، وتزوجت من صبي كان يعطف عليه القصري ويعتبره الابن الذي لم ينجبه!

وأصابه الكمد، وحل عليه الاكتئاب، وأحاط به المرض، وظل في منزله لا يغادره حتى جاءت الحكومة لتكمل على ما تبقى له، وهدمت له البيت الذي كان يسكن فيه بدعوى الضرائب المتأخرة، ليذهب القصري إلى العيش في «مساكن مظلوم» في حي الشرابية، ولم يعد أحد من رفاق الدرب يسأل عنه، فعاش وحيدا شريدا لا تطمئن عليه سوى شقيقته التي اضطرت إلى بيع الشاي والسكر لتنفق على أخيها! فتصلبت شرايين مخه، وفقد الذاكرة، ودخل مستشفى «المبرة» حتى يوم رحيله، ولم يحضر جنازته سوى أربعة أفراد!

كان عبد الفتاح القصري قد بدأ حياته طفلا مرفّهًا، يعيش مع والده تاجر المجوهرات، ويتعلم في مدرسة الفرير، ويتحدث الفرنسية بطلاقة، ويعيش في بيت كبير، لكن عشقه للتمثيل دفعه إلى هجرة مهنة والده وثرائها، ليعيش حياة متقلبة بين قمة النجومية، ومنحدر الفقر الشديد، لكن لا أظن أنه ندم على ما فعل، فلولا ما فعله ما ظل حيًا في وجداننا رغم رحيله منذ أكثر من نصف قرن.

لكن من يجب أن يندم ويخجل هي الدولة التي لا ترعى مواهبها العظيمة، ولا تراعي من صنعوا مجدها الفني، ولا تكفل لهم حياة كريمة بعد أن انزوت عنهم الأضواء، فما جرى لعبد الفتاح

للقصري وريات صدقي تكرر مع كثيرين منهم صاحب الضحكة الأكثر تميزا حسن فايق الذي أُصيب بالشلل في سنواته الأخيرة، ولم يعد قادرا على مغادرة منزله، ولم يكن معه من المال ما يضمن به حياة كريمة، لكنه كان أفضل حظا من صديقه القصري، حين همس بعض أصدقائه في أذن الرئيس ليصرف له معاشًا استثنائيًا مدى الحياة.

لم يحسب هؤلاء الفنانين العظماء حساب الزمن، وأنه صعود وهبوط، فكانوا يعملون من أجل إسعاد أنفسهم قبل إسعاد الناس، ولم يكن المال جزءا من هذه السعادة، ولم يكن هناك فارق بين نجوم الصف الأول والثاني والثالث، فـ«الشاويش عطية» مات مديونًا، وكذلك عبد السلام النابلسي الذي طاردته الضرائب وباع كل ما يملك لسدادها، ولا يختلف حالهما عن حال إسماعيل يسين الذي فتك به المرض، ولم يعد يسأل عنه أحد سوى مصلحة الضرائب التي تذكرته فجأة في مرضه، وطالبته بمتأخرات أرباحه عن كل أعوامه السابقة، وحجزت على عمارته فانهار كل ما بناه، وتخلى عنه أصدقاؤه المقربون، فعاد إلى غناء المونولوجات في الملاهي الليلية لكسب العيش قبيل رحيله.

نقمة المضحكين طالت الظرفاء، حتى الأشرار منهم، فالنمساوي الأصل استيفان روستي الذي ظل محتفظًا بحيويته حتى سن الخامسة والخمسين، لكن فجأة مات نجله وهو طفل، فشعر استيفان بأنها علامة على نهاية حياته هو، فأُصيب بانسداد في صمامات القلب، وبعد ساعة واحدة أسلم استيفان روستي الروح إلى بارئها ولم يكن في بيته سوى سبعة جنيهات، وفي صباح اليوم التالي لوفاته سُرقت سيارة أسرته، وبعد أسبوع آخر أصيبت زوجته بالجنون حزنًا عليه!

هذا هو حال الكوميديان في أيامه الأخيرة بعد أن ينسحب خارج بؤرة الضوء، ويبقى وحيدًا في مواجهة الحياة القاسية التي لم يكن يُلقي لها بالاً.

شرارة

يؤمن الكوميديان أكثر من غيره بالحظ والنحس، فيمكن لـ«إفيه» واحد فقط أن يصبح نجمًا يبحث الجميع عنه، ويلتف المتحوون حوله، ويلهث المحرجون خلفه، وقد تنهي أزمه صحيه طارئة حياته الفنية، والمسرح علّم الكوميديان أن الجمهور يمكن أن يرفعه إلى السماء بضحكاته، ويمكن أن يهبط به إلى الأرض بصمته، فالحظ وحده يلعب دور البطولة، فيمكن أن تقول كل شيء ولا يضحك أحد، ويمكن أن لا تتكلم مطلقًا ويسقط الجمهور على الأرض من الضحك من مجرد حركة غير مقصودة!

ربما كان محمد عوض واحدًا من أكثر المؤمنين بدور الحظ في حياة الإنسان عامة والفنان على وجه الخصوص، فأفرد مسلسلا كاملا سماه «برج الحظ» ولعب واحدا من أجمل وأبدع أدواره وهو «شرارة» ذلك الرجل الذي يذهب معه النّحس أينما حلّ، وقد نجح عوض نجاحًا لافتًا جعل المسلسل واحدًا من أشهر الأعمال في تاريخ الدراما، بل إن تأثيره تجاوز الشاشة الصغيرة إلى حد جعله مؤثرا في الشارع.

فكل شخص تُشتمّ فيه رائحة النّحس يطلّق عليه «شرارة» حتى إنه في لحظة واحدة صار هناك مئات الأشخاص الذين يحملون لقب «شرارة» في نهاية السبعينيات رغم أن «شرارة» أدرك أنه لم يكن منحوسًا بقدر ما كانت مؤامرات البعض عليه هي ما جعلته

يبدو كذلك، ولعبت الصدفة دور البطولة في ترسيخ هذا الشعور.

لكن محمد عوض عقب نجاحه الكبير في «برج الحظ» لم يحالفه الحظ في أعماله التالية، ولم يعد يتربع على شباك الإيرادات كعادته في الستينيات، فبعد أن كان يقوم بعمل ثمانية أفلام في عام واحد، وبعد أن قدم قرابة ستين فيلمًا في ثمانية عشر عامًا فقط (من عام ١٩٦٠ إلى عام ١٩٧٨)، لم يقدم سوى ثمانية أفلام في تسعة عشر عامًا بعدها!

ربما حلت عليه لعنة «شرارة»، فبعد أن كان نجم الشباك الأول بدأ نجمه في الأفول، لكن المدهش أن عمنا محمود السعدني توقع ذلك قبل نحو عشر سنوات، حين كان عوض في قمة نجوميته، بل إنه جزم بأن محمد عوض لن يستمر سوى عشرة أعوام فقط وبعدها سيأفل نجمه، ولن يعود إلى مكانه ومكانته، وستهجره الأضواء تدريجيًّا، وستكون نهايته الفنية!

كان السعدني جارحًا بصورة مثيرة للاهتمام، كأنه كان يقرأ الغيب، لكنه فسر ذلك الجزم بنهاية عوض بعد ١٠ سنوات قائلا: «هل أنا منجم أضرب الرمل وأوشوش الودع وأبين زين وأشوف البخت؟ والجواب: أنا لست من علماء الفلك، ولا أنا ساحر أو منجم، وأنا حددت الفترة لسبب، فرغم بروز عوض كمنافس لفؤاد المهندس كنجم شباك، فإن الواقع أن الحياة ستمضي بالمهندس بينما تضيق الحياة أمام عوض كلما امتد به العمر.

مصيبة عوض أنه فن بلا عقل، وهو بعد (حلفدان هانم) لم يستطع أن يقدم شيئا ذا قيمة، وبعد الشهرة غرق لشوشته في دوامة التفاهات، وسر هذه الغرقة أنه من عشاق نجيب الريحاني.

وبعد وجد محمد عوض المسرح ولكن عليه أن يبلور أسلوبه في

الضحك، وأن يتبين طريقه وسط مدينة المضحكين وأن يسعى لكي يبني مدرسته وأن يكتشف تلاميذه. ومحمد عوض لكي يحقق هذه الأمنيات عليه أن يغير من تفكيره فهو كما قلت فن بلا عقل، وموهبة بلا مغزى، وتعليم بلا ثقافة، وتمثيل بلا نقطة بداية، وطريق بلا معالم».

وتحققت نبوءة السعدني، وهجر الجمهور محمد عوض، فبعد أن كافح طويلا في بداية حياته حين صار مسؤولا عن ثلاث بنات ووالدته بعد رحيل والده، ومر بظروف مادية قاسية، وهو في مقتبل العمر، فاضطر أن يعمل في مصلحة المساحة، ليبقى على دراسته وأسرته، وبعد حصوله على التوجيهية، أراد الالتحاق بالكلية البحرية، ولكن سرعان ما تغيرت رغبته ودخل كلية الآداب قسم الفلسفة، وبعد إتمام تعليمه الجامعي انتقل للعمل بهيئة الإصلاح الزراعي.

لكن طوال هذه المعاناة كان يبحث عن ذاته المشغولة بالفن، وكان متأثرًا بالفنان نجيب الريحاني لدرجة أنه كان بارعًا في تقليده، وتحمل كثيرًا حتى سنحت له الفرصة لتقديم مواهبه، فصعد سلم المجد وتدرج فيه من كومبارس إلى صاحب البطولة المطلقة، ونجم الشباك الأول، لكن مثلما وصل إلى برج حظه في الستينيات والنصف الأول من السبعينيات، عانده النَّحس في نهاية السبعينيات والثمانينيات، ولكن المفارقة أن كل هذا جرى له بعد تألقه في دور «شرارة»!

انسى يا عمرو!

مجرد صدفة جعلت والد «عمرو» لا يجد سكنًا مناسبًا إلا في شارع «سيد درويش»!

هذا المسكن المتواضع الذي لا يحوي أبسط الأثاث، ولا تزيد مساحته عن الستين مترا، عثر به «عمرو» على ضالته، «بيانو» قديم تركه جده لوالدته، تعلم أبجديات العزف عليه.

وحين وقعت النكسة عانت الأسرة من مرارة التهجير، فذهبوا إلى محافظة الشرقية ليعيشوا هناك لسنوات، ثم عادوا بعدها إلى بورسعيد، وذهب «عمرو» إلى مدرسة «القنال» الإعدادية، وجلس في فصل لا يوجد فيه تلميذ أهلاوي، فالأسطورة تقول إن محافظات القناة لا تحب أهلاوية، فصار زملكاويًّا!

كان الغناء اهتمام «عمرو» الأول، وكان صوته المميز بمثابة فاصل غنائي بين الحصص، فصوته كان مميزًا بصورة لا يمكن تجاهلها، لكن نبوغه في الغناء لم يشفع له عند وضع درجات الامتحانات في الشهادة، لكنه كان ينجح في نهاية العام.

وظل «عمرو» هكذا حتى حصل على شهادة الثانوية العامة، وترك بورسعيد، وذهب إلى القاهرة عام ١٩٨٢، والتحق بالمعهد العالي للموسيقى العربية، وهناك التقى زميلته «أمل» التي اعتاد أن يسير بصحبتها في رحلة العودة من معهد الموسيقى إلى البيت،

فكلاهما كان يصعد نفس الأوتوبيس، فيسارع «عمرو» ليدفع لها الأجرة مرة، وتسارع هي نحو الكمسري لتدفع له مرات!

كانت «أمل» الأولى على الدفعة، وكانت تذاكر وتتفوق وتتصدر المشهد وتنال اللقب عن جدارة واستحقاق عامًا بعد الآخر.

هذا التفوق اللافت جعلها الأشهر بين أبناء دفعتها، فالكل دائمًا يعرف الأول على الدفعة، ويبحث عنه، ويوثّق صداقته به، ربما ينفع في أيام الامتحانات حيث الملخصات، والمراجعات النهائية، والمحذوف والمقرر، والأسئلة المتوقعة في الامتحان، والطريقة التي يفضلها أستاذ المادة في كراسة الإجابة.

لكن «عمرو» لم يستفد من تفوق «أمل»، وكان يسعد بصداقتها دون أن يشغله تفوقها، فهو كان قد اختار طريقًا آخر لإثبات قدرته، فقد ذهب إلى لجنة الاعتماد بالإذاعة المصرية المكونة من الموسيقار محمد الموجي والملحن حلمي بكر ليتم اعتماده مطربًا، لكن اللجنة رفضته بالإجماع حيث كان يعيب على غنائه اللهجة البورسعيدية، ويومها أعطوه فرصة ستة أشهر ليواصل التدريب والتخلص من «اللكنة» البورسعيدية، وبعد مرور الشهور الستة عاد مرة أخرى، وغنى لهم دعاءً دينيًا فتم اعتماده مطربًا في الإذاعة.

وفي العام التالي سجل «عمرو» أول أغنية له بعنوان «الزمان»، وعلى الجانب الآخر كان النجاح لا يعرف طريقًا إليه، فعدم ذهابه إلى المعهد جعل الرسوب صديقه الصدوق، ومع تكرار رسوبه لم يعد استمراره في المعهد ممكنًا وصار «رفده» مسألة وقت، وبالفعل استنفد «عمرو» مرات الرسوب، وترك المعهد، وصار في نظر الناس فاشلا راسبا، لكنه ذهب ليبحث عن حظه في طريق

آخر وسار خلف حلمه أن يصبح مطربًا في شهرة عبد الحليم حافظ، وهذا هو السبب الوحيد في ذهابه إلى معهد الموسيقى.

وفي هذا التوقيت كان ينتقل من بيت أحد زملائه إلى بيت آخر، مما جعل خطيبته الأولى تتركه، لكنه أصر على النجاح، فذهب للغناء في شارع الهرم، وفجأة لاحت له في الأفق بادرة أمل عندما أتيحت له الفرصة للغناء في حفل ختام مهرجان القاهرة السينمائي، لكن النّحس ظل يلاحقه، فلم يستطع لفت الأنظار لموهبته، وسخروا منه وأطلق عليه البعض وصف «المطرب العجّالي» لزيادة وزنه، وارتدائه بدلة واسعة اقترضها من أحد زملائه.

لكن «عمرو» ظل يحاول، ويسعى، ويجرب حتى نجح في إصدار ألبومه الأول بعد معاناة طويلة، لكن سعادته لم تكتمل، فبعد أن عمل بدأب على إنتاج «الشريط الأول» الذي كان يتحسس فيه طريقه، وسماه «يا طريق»، وقد تكلف هذا العمل قرابة ٤٥ ألف جنيه -وكان رقمًا كبيرًا حينذاك- وتعاون فيه مع كبار الشعراء والملحنين، لم يحالفه الحظ، ولم يسمعه أو يسمع به أحد.

في ذات التوقيت كانت زميلته في المعهد «أمل» قد صارت معيدة، وحصلت على الماجستير بامتياز، وعلى الجانب الآخر كانت علاقة «عمرو» بالمعهد قد انتهت إلى غير رجعة، لكن القدر بدأ يبتسم له بعد سنوات من المعاناة، فحين خرج ألبومه الثاني في نهاية الثمانينيات «كتّر الدنيا»، وظلت مصر كلها تردد معه «من كام سنة وأنا ميال ميال».

وعرف عمرو دياب طريق النجومية من خلال السهرات التليفزيونية، والأفلام السينمائية، ثم جاءت واحدة من كبرى نقاط التحول في تاريخه، وهو حفل افتتاح بطولة الألعاب الإفريقية

الخمسة، والذي غنّى فيه عمرو باللغتين الإنجليزية والفرنسية «بالحب تجمعنا والدنيا هتسمعنا والليلة أول أعيادنا»، وبالفعل كان عيدًا لعمرو دياب.

وحصلت زميلته «أمل» على درجة الدكتوراه، وصارت أستاذة في المعهد العالي للموسيقى، وصار زميل دراستها واحدًا من ألمع نجوم الغناء في الوطن العربي، فهو صار عمرو دياب بينما ظلت هي تكتفي بأن تروي لطلابها في المعهد قصة صداقتها له.

هي نجحت وتفوقت وصارت دكتوره في المعهد العالي للموسيقى، وهو تم رفده فصار عمرو دياب المطرب الأشهر والفنان العربي الأكثر رواجًا، والنجم الذي حصل على عدد هائل من الجوائز العالمية، وله ملايين المحبين الذي جعلوه يحصل على جائزة أفضل مطرب في القارة الإفريقية في عام ٢٠٠٩.

وفي نفس العام دُعي عمرو لحضور فرح نجل أحد أصدقائه (الذي كان رئيسًا في مجال صناعة شرائط الكاسيت ثم صار واحدًا من أكبر ناشري الصحف في مصر) وحين وضع عمرو قدمه في الفرح قام الجميع لمصافحته، والتقاط الصور معه، لكن فجأة اقترب منه رجل بدا كبيرًا في السن والمقام، وصافحه بحميمية، وقال له «مش فاكرني يا عمرو..؟ أنا خالد اللي كنت معاك في الفصل في مدرسة القنال في بورسعيد»، فابتسم عمرو ابتسامه عريضه، وبدا كأنه يتذكر الأيام الخوالي، وصافح خالد وقال له مازحًا: «انت كبرت قوي يا خالد.. إوعى تقول إنك كنت معايا في المدرسة»!

صدفة، لا تحدث إلا في الأفلام المصرية القديمة، لكنها حدثت ورأيتها، وكنت شاهدا عليها، فخالد زميل المدرسة صار صحفيًا وكاتبًا، وغطى الشيب رأسه، وبدت عليه بوضوح علامات الكبر،

بينما كان الحديث داخل قاعة الفرح حول سؤال واحد «هوّ عمرو دياب بيصغر ولا بيكبر؟!».

صنع عمرو دياب لنفسه أسطورة خاصه، نجح في أن تكون متفردة، حتى إن المسمى الذي اختاره له جمهوره كان مختلفا ولافتًا، فنجوم الغناء كانوا دائمًا بمثابة أهرامات، لكن عمرو اختار أن يكون هو وحده «الهضبة».

ذهب الحظ الأكبر لمن صنع نجاحا متفردا، وتحولت أيام النَّحس الأولى إلى سنوات من النجاح والتألق، فحين سُئل محمد منير عن الفرق بينه وبين عمرو دياب، أجاب: «عمرو اختار الطريق الأصعب، فقد اختار أن ينافس الجميع، وأن يطل على القمة في كل عام متفوقًا على كل نجم جديد، بينما أنا اخترت أن أكون بعيدًا عن المنافسة».

حظوظ المثقف المصري

في عام ١٩٩٧ قررت مُعلمة في إحدى مدارس الرتعال أن تكتب روايتها الأولى للأطفال لكنها لم تجد ناشرًا يتحمس لها، وبعد محاولات كثيرة بذلتها من أجل إقناع أي ناشر وجدت ناشرًا لكنه اشترط عليها أن لا يكتب اسمها كما أرادته، بل استخدم الحروف الأولى، لأنه عتقد أن القراء سينفرون من قراءة كتاب أصغل كتبته امرأة.

لكن هذه الرواية حققت ما لم يحققه أحد قبلها ولا بعدها، وصارت «كي جي رولينج» واحدة من أثرياء العالم بفضل هذه الرواية، وقد نشرت مجلة «فوربس» في عام ٢٠٠٤ أن ثروتها تجاوزت المليار دولار، لتكون أول مليارديرة في العالم من الكاتبات، وتصبح أشهر وأغنى كاتبة في العالم، وتصير روايتها «هاري بوتر» بأجزائها السبعة الأكثر مبيعًا في تاريخ الأدب.

لكن في مصر الوضع مختلف...

ففي نفس العام الذي لمعت فيه نجومية «جي كي رولينج» كان لدينا أديب تُرجمت معظم رواياته إلى الروسية والصينية والإنجليزية والفرنسية والأوردية والعبرية والإيطالية، وقُدمت عنه عدة رسائل للماجستير والدكتوراه في جامعات القاهرة وطنطا والرياض وأكسفورد وإحدى الجامعات الألمانية.

وحين ذهب هذا الأديب الكبير والراوي الأهم، والحكّاء الأعظم يحصل على حقوقه في إحدى أهم رواياته من الناشر وجد أن نصيبه ثلاثمئة جنيه، فاشترى بها كتبًا قبل أن يعود إلى بيته!

إنه العم خيري شلبي راوي النصف الثاني من القرن العشرين، وصاحب «الوتد» و«الأوباش» و«الشطار» وغيرها من الروائع الأدبية، الأديب الذي كتب تاريخًا موازيًا ثريًّا لعالم مصر الاجتماعي، وقدم سيرًا لأبطال من نوع خاص، يكتسبون بطولاتهم من كونهم يواصلون البقاء أحياء في مواجهة كل عناصر الفناء.

هذه -مع الأسف- حظوظ المثقف المصري الذي مهما جرى له، ومعه، من تكريم وتبجيل فإنه في نهاية الأمر لا يحصل على تقدير يتناسب مع حجم عطائه، لذلك يشعر المثقف المصري مهما علا قدره وارتفعت مكانته بأن لديه قدرًا ليس قليلًا من النَّحس.

فربما يتعثر الحظ دائمًا في طريقه إلى العالم الثالث، لكن يذهب راضيًا إلى سكان العالم الأول، مثلما ذهب إلى كاتبة كندية قررت أن تتفرغ لتربية أولادها، وأن تكتب القصة القصيرة في وقت فراغها لأنها لا تملك الوقت والجهد لكتابة الرواية الطويلة. لكن فجأة اسمها تسلّل إلى قائمة المرشحين لجائزة نوبل للآداب في اليوم الأخير، فدخلت وأغلق الباب خلفها، لذلك لم تظن الكاتبة الكندية للحظة أن تذهب إليها الجائزة، فرغم أنها أخلصت للقصة القصيرة طوال مسيرتها الكتابيّة الممتدة إلى ما يزيد على نصف قرن، فإنها كانت تظن دائمًا أن ما كتبته للقصص القصيرة مجرد «بروفات إلى أن يحين وقت كتابة رواية».

إنها «أليس مونرو» التي لم يستطع السكرتير الدائم للأكاديمية الملكية السويدية في استوكهولم أن يبلغها بفوزها بجائزة نوبل في

الآداب لعام ٢٠١٣!

وحين علمت من الصحافة بفوزها بالجائزة استقبلت النبأ العظيم بهدوء شديد، وعبرت عن «سعادتها وامتنانها لنيل الجائزة» وأضافت أنها «سعيدة لأنّ الأمر سيجذب المزيد من الانتباه إلى الكتّاب الكنديّين».

لكن الحظ العاثر في مصر جعل أحد أعلام وعلامات القصة القصيرة، يوسف إدريس، يترشح لجائزة نوبل خمس مرات، وفي كل مرة يفوز بها واحد غيره، لدرجة أنه في المرة الأخيرة نشرت إحدى الصحف الأمريكية نبأ فوزه بالجائزة، لكن في اليوم التالي تم الإعلان عن فوز نجيب محفوظ بالجائزة!

يومها شعر إدريس بأنه في برج نحسه، وأنه يدفع ضريبة مواقفه السياسية، وهاجم الجائزة ومانحيها، ومحفوظ أيضًا!

كان من حق إدريس أن يحصل على «نوبل»، لكن في ذات الوقت كان لا بد أن يفوز بها العم نجيب محفوظ الذي أعطى «نوبل» أهمية كبرى، وقيمة عليا، ومكانة أرقى، فقد تأثر به عدد هائل من علامات الرواية في العالم.

وإذا كان النَّحس يلاحق قامة عالية وقيمة كبيرة مثل يوسف إدريس رغم شهرته ومكانه ومكانته ونجوميته، فما بالنا بعدد هائل من المثقفين الذين لم يحصلوا على شيء، ولم يصلوا إلى شيء من وراء إبداعاتهم العظيمة وثقافتهم الرفيعة رغم أن بعضهم صار بيته عبارة عن مكتبة كبيرة لا مكان فيها للأثاث المنزلي ولا لزوجته وأولاده، ولا حتى لنفسه.

ربما هذه طبيعة الأنظمة في دول العالم الثالث التي لا تُعنى

بالمثقفين، وإنما تهتم فقط بأنصاف المبدعين، والمدّعين الذين يروجون لها، ويتحدثون عن إنجازاتها، وربما لارتفاع نسبة الأمية حتى بين المتعلمين، وربما أيضًا لارتفاع أسعار الكتب وانخفاض مستوى الدخل، صارت رفاهية، ولم يعد يقدر عليها سوى المرفهين والمترفين، وهؤلاء غالبا ما يتجهون إلى قراءة الكتب الأجنبية.

لكن المحصلة أن المثقف المصري يشعر أن حظه العثر قاده ليولَد في واحدة من دول العالم الثالث التي لا تقدر الإبداع حق قدره، ورغم إيمان المثقف بوطنه وقضاياه، فإنه يشعر أن حقه ضائع، وأنه لم يحظَ بالاهتمام الذي يليق بإبداعه، وأنه لو وُلد في أي بقعة أخرى من العالم ربما تغير كل شيء في حياته.

ففي مصر لا يستطيع المبدع مهما علا قدره أن يتفرغ لإبداعه، ولو فعلها -على سبيل المغامرة غير مأمونة العواقب- فإن الجميع سيكونون مشفقين عليه، فلا يوجد مبدع إلا ولديه عمل آخر، فتوفيق الحكيم كان موظفًا، ونجيب محفوظ ظل حتى سن الستين يذهب صباح كل يوم إلى عمله، وعندما عرض عليه الأستاذ محمد حسنين هيكل العمل في جريدة «الأهرام» التي كان يترأس تحريرها، رفض وأصر على أن لا يتفرغ للعمل في «الأهرام» إلا بعد سن الستين ليطمئن على المعاش من أجل ابنتيه، ربما لو وُلد محفوظ في بلد آخر لعُدّلت قوانين المعاش بها من أجله، ولتفرغت الدولة -والدول المجاورة لها- لرعاية موهبته!

لكن الوحيد الذي شذّ عن هذه القاعدة كان عباس العقاد الذي قرر أن يتفرغ للكتابة، لكنه اضطر إلى أن يلجأ إلى بيع مكتبته أكثر من مرة للإنفاق على نفسه.

هذا هو حال المبدع في مصر، لا بد أن يكون له عمل آخر ينفق منه على نفسه وأسرته، فالمبدع هاوٍ إلى أن يثبت العكس، فالعملاقان أمل دنقل وعبد الرحمن الأبنودي كان أحدهما يعمل «مُحصِّل» والآخر «كاتب جلسة» في بداية حياتهما، وعندما أبلغهما يحيى الطاهر عبد الله أنه قرر أن يتفرغ للقراءة والكتابة اتهماه بالجنون!

إذا كان هذا هو حال رموز الأدب والشعر في مصر، فما بالنا بحال أدباء وشعراء الأقاليم والمبدعين من الشباب الذين لا يعترف أحد بإبداعاتهم إلا بعد سنوات طويلة وشاقة من المعاناة، وبالتالي يلجأ أغلبهم إلى العمل بالصحافة حتى يحصل على مصدر للدخل الثابت، ولكي يكون تقديره بالصورة اللائقة، لذلك فإن أغلب المبدعين يلجؤون إلى العمل بقسم الصياغة في الصحف حيث يقومون بإعادة كتابة موضوعات الصحفيين، ورغم أن هذا العمل هو الأنسب -وإن لم يكن الأفضل- لمواهبهم فإنه أيضًا يجعلهم أكثر شعورا بسوء الحظ لأنهم يعتبرون أنفسهم السبب الأول في نجومية الصحفيين، ورغم ذلك لا أحد يذكرهم أو يتذكرهم أو يعترف بفضلهم.

ولو فكر أحد هؤلاء الشباب في ترك العمل الصحفي والتفرغ للإبداع ربما لكان مصيره مثل مصير الأديب السوداني محمد بهنس الذي ترك بلده بعد انقسامها، وقصد مصر لكنه لم يجد عملا بها، وظل وحيدا شريدا في طرقات القاهرة، وقضى أيامًا طويلة على أرصفة وسط البلد دون أن يجد مأوى، أو ملابس ثقيلة تقيه البرد، وبقي على حاله وحالته بملابسه المهترئة في ليالي الشتاء حتى توقف قلبه عن النبض، ورحل بهنس متجمدا على رصيف أحد شوارع القاهرة.

الفصل الرابع
فى العارضة

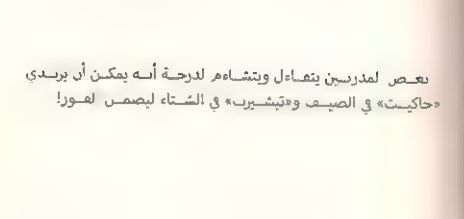

بعض المدرسين يتفاءل ويتشاءم لدرجة أنه يمكن أن يرتدي «جاكيت» في الصيف و«تيشيرت» في الشتاء ليضمن الأمور!

حظ مجدي عبد الغني!

السؤال: متى يصل منتخب مصر إلى كأس العالم؟

الجواب: عندما يفوز الزمالك على الأهلي!

السؤال: ومتى يفوز الزمالك على الأهلي؟

الجواب: في المشمش!

من المؤكد أن الثابت في الكون أنه متغير، وأنه لا يوجد فريق يفوز طول الوقت، وآخر تلاحقه الهزائم أينما حل، والتاريخ يؤكد أن الفائز اليوم مهزوم غدًا، والعكس، لكن أعتقد أن مباريات الأهلي والزمالك تنطبق عليها قوانين الفيزياء أكثر من دروس التاريخ، فالمنتصر دائم، والمهزوم كذلك!

ولو تجسد الحظ في فريق كرة قدم لكان هذا الفريق هو الأهلي دون منازع، ولو تجسد النحس في فريق لكان الزمالك دون نقاش.

هذه حقيقة يدركها أي مشجع لكرة القدم، ليس في مصر فحسب وإنما في الوطن العربي كله، فالأهلي لا ينافس في عدد البطولات لدرجة أنه صار واحدًا من أكثر الأندية تتويجًا في العالم، أما الزمالك فهو بلا مبالغة تاريخ من النحس، فحين حصل على بطولة إفريقيا للأندية أبطال الدوري ووصل إلى كأس العالم للأندية كأول فريق مصري وعربي، تم إلغاء البطولة، نظرًا إلى إفلاس الشركة

الراعية!

وحين حصل الزمالك على بطولة الدوري بعد ١١ عامًا مات ٢٠ مشجعًا زملكاويًا أمام الاستاد، وخسر في نفس العام من الأهلي في واحدة من أسوأ المباريات التي لعبها الأبيض في تاريخه! وللأسف يبدو أن حظوظ منتخب مصر في الوصول إلى كأس العالم هي نفسها حظوظ الزمالك في الفوز على النادي الأهلي. ففي كل مرة يشعر فيها الشعب المصري أن فرصه في الوصول لكأس العالم اقتربت سرعان ما يثبت أنه مجرد سراب، حتى حينما امتلك منتخب مصر كل المقومات في عام ٢٠٠٩، وصار أفضل فريق في القارة الإفريقية، وصارت مسألة وصوله إلى كأس العالم مسألة وقت، فجأة تعقدت الأمور، وتعرض المنتخب لهزائم غريبة، وحين استفاق من أزماته المتلاحقة، ولم يعد أمامه سوى فرصة وحيدة بالفوز على منتخب الجزائر في القاهرة بهدفين، وبعد أن تحققت المعجزة، وفاز المنتخب في الوقت الضائع، وذهب لمباراة فاصلة في السودان، ظن الجميع أن نتيجتها تكاد تكون محسومة، فاز منتخب الجزائر، وصعد لكأس العالم!

لذا لم يكن غريبًا أن يؤمن الشعب المصري أن «كل عقدة ولها حلال».. إلا عقدة شمال إفريقيا» لتصبح دول المغرب وتونس والجزائر أكثر الدول عداءً للجماهير المصرية، فالمغرب لم نفز عليه منذ أكثر من ربع قرن، وتونس نحتاج دائمًا إلى معجزة للفوز عليها، أما الجزائر فقد أصبحت على رأس الدول الأكثر عداء للجماهير المصرية بسبب مباراة استغلها السياسيون لإحراز أهداف سياسية.

لكن يبدو أن مسألة وصول مصر إلى كأس العالم صارت واحدة

من المعجزات التي لا يمكن تحقيقها، وربما صار قدرنا أن الكابتن مجدي عبد الغني يصبح هداف مصر التاريخي في كأس العالم من هدف واحد أحرزه من ضربة جزاء!

واللافت أن هذا الهدف لم يجعل من مجدي نجمًا في حينها، بل كان الجميع يعرف ويدرك أنه ليس اللاعب الأهم في المنتخب، وأن الهدف ليس سوى ضربة جزاء حصل عليها حسام حسن بكفاح كبير، وأن هناك نجومًا كثيرين في المنتخب يفوقون مجدي مهارة ونجومية.

لكن شاء القدر أن يصبح مجدي عبد الغني بهذا الهدف الذي لم يفعل شيئًا للمنتخب، ولم تذهب به مصر للدور الثاني في البطولة، بل خرجت بتعادلين وهزيمة- أشهر نجم مصري في كأس العالم، وصار واحدًا من نجوم الإعلانات بفضل هذا الهدف، الذي لم يتقاض مكافأة عليه في حينه، لكن بعد أكثر من ربع قرن أصبح الهدف الأهم الذي يجذب المعلنين، وحصل بسببه على ثروة لم يحصل عليها طوال حياته كلاعب.

وهذا هو الحظ حين يطرق الباب، فلا يحتاج إلى مقدمات، ولا يمكن أن تتوقعه أو تنتظره أو تحجبه!

لذا كان السؤال الأجمل الذي سأله محمد عادل إمام لمجدي عبد الغني في فيلم «كابتن مصر»: «هوّ صحيح لو ضربة الجزاء كانت ضاعت كان إيه اللي حصل؟».

وأجاب مجدي: «كنا ضعنا».

لكن الحقيقة أنه لا شيء كان سيحدث، سوى أنه لا أحد كان سيتذكر مجدي عبد الغني، لكنها ضربة حظ أصابت، لكن بعد

ربع قرن، وجعلت الناس تنسى لقب مجدي عبد الغني قبل هذا الهدف، وهو «مجدي مقشة» ولهذا اللقب سبب، فقد كان مجدي يلعب في ثمانينيات القرن الماضي إحدى المباريات مع النادي الأهلي، ولم يكن موفقًا في هذه المباراة، فهاجمه الجمهور، وزاد أحد المشجعين في انفعاله على مجدي، فما كان من كابتن مصر إلا أن حمل «مقشة» وجرى بها خلف هذا المشجع!

لكن هدف التعادل للمصريين في كأس العالم جعل مجدي فوق الجميع من أبناء جيله الذين لم يعد أغلب الجمهور يتذكرهم إلا بحكم ظهور بعضهم في البرامج الرياضية.

لاعبو الكرة هم أكثر المؤمنين بالحظ والنَّحس، فحين يتألق حارس مرمى في مباراة فمن الصعب أن يقوم بتغيير الجوانتي، وإذا سار لاعب في أحد الشوارع قبل مباراة مهمة وتألق وفاز فريقه، فمن المؤكد أنه يحاول تكرار ما فعله في كل المباريات المهمة، وإذا ارتدى أحد المدربين ملابس بعينها وفاز فإنه غالبًا ما يكرر هذه الملابس حتى لو اضطرّ إلى أن يرتدي «جاكيت» في الصيف أو «تيشيرت» في الشتاء!

فحارس المنتخب عصام الحضري كان يحافظ على الجوانتي الذي تصدى به لأخطر الكرات، وحسام حسن ظل طوال تدريبه للزمالك يرتدي نفس الملابس، حتى لاقى أولى هزائمه من الأهلي فاستغنى عن الملابس، والكابتن حسن شحاتة كان يختار نفس مكان المعسكر، بنفس الأشخاص، بذات التفاصيل، ويقوم بإحضار نفس الأغاني، ويتصل بأحفاده ليلة المباراة، ويمارس هو ولاعبوه نفس الطقوس قبل المباريات المهمة، وهذا ما كرره المنتخب في ثلاث بطولات إفريقية متتالية، بل إن حسن شحاتة ولاعبيه كانوا

يتفاءلون بحضور أو اتصال الرئيس الأسبق مبارك أو اتصال أحد أبنائه قبل البطولات الكبرى، وكانوا يعتبرون هذا الاتصال «بشرة خير».

ولاعبو الزمالك كانوا يذهبون إلى الإسماعيلية قبل مباراة الأهلي، ظنًّا منهم أنه فأل حسن على الفريق، فالزمالك كان يفوز على الأهلي عندما يقام معسكره في القرية الأوليمبية، ولكن كانت آخر مرة ذهب فيها لاعبو الزمالك إلى هذا المعسكر حين فاز الأهلي على الزمالك ستة واحد!

الزمالك قادم!

اليوم: الخميس، الخامس من يناير عام ١٩١١.

في هذا التوقيت تأسس نادي الزمالك إحدى كبرى قلاع الرياضة والنحس في مصر، فلا يحتاج ارتباط الزمالك بالنّحس إلى دليل، ربما فقط يحتاج إلى تأريخ، فعلاقة نادي الزمالك بالنّحس مثل علاقته بالفانلة البيضاء، فهي علاقة ثابتة وراسخة ولم تتأثر بأي موقع صار مقرًّا للنادي، فالنّحس يلاحق كل شيء يتعلق بالزمالك حتى اسمه.

فلم يحدث أن تغير اسم نادٍ مصري أربع مرات، مثلما حدث مع نادي الزمالك الذي تم إنشاؤه تحت اسم «نادي قصر النيل» ثم تغير إلى «المختلط» ثم أصبح «نادي فاروق» حين فاز الزمالك على الأهلي في مباراة «الستة صفر»، ولكن بعد ثورة يوليو صار اسم فاروق من المحرّمات فتنازل أغلب أعضاء النادي عن عضوياتهم خوفًا من غضب الضباط الأحرار لارتباط اسمه بالنظام البائد، وحتى يعود النادي إلى الحياة ولا تُغلق أبوابه إلى الأبد صار اسمه «نادي الزمالك».

وحين ابتسم الحظ للزمالك في نهاية الخمسينيات، وتولى عبد اللطيف أبو رجيلة -أحد أشهر وأغنى رجال الأعمال في منتصف القرن الماضي- رئاسة النادي في عام ١٩٥٨ حصل الزمالك على بطولة الدوري لأول مرة في تاريخه، وارتفعت ميزانيته ثلاثة أضعاف،

ودخل الزمالك مرحلة جديدة انتعش فيهـا، وتوسعت المنشآت، وتبرع أبو رجيلة ببناء مقر نادي الزمالك في ميت عقبة بعد أن كان الزمالك عبارة عن مجرد ثلاث غرف ومدرج خشبي، وتم بناء مدرجات الدرجة الثالثة في النادي، وافتتح ملعب الزمالك بلقاء مع فريق دوكلا براغ التشيكي في مباراة امتلأت فيها مدرجات الزمالك عن آخرها، وانتهت بفوز الزمالك بثلاثة أهداف نظيفة.

جعل أبو رجيلة من مقر النادي قطعة من الجنة، وسط حقول ميت عقبة وحاراتها العشوائية آنذاك، وعندما أدخل المياه إلى نادي الزمالك لم ينس أن يمد المياه لسكان ميت عقبة الفقراء مجانًا على نفقته، لكن بعد ثلاث سنوات فقط من رئاسته لنادي الزمالك صدر قرار التأميم، وتمت مصادرة أمواله!

لم يكن النحس يلاحق فريق الكرة بنادي الزمالك فقط، وإنما يلحق أيضًا بأي شخص يحب النادي ويحاول تطويره.. فأبو رجيلة ليس وحده!

فبعد تأميم أبو رجيلة عثر الزمالك على رجل أعمال آخر، وكان رئيس مجلس إدارة شركة «كوكا كولا» (في ذلك التوقيت) اسمه علوي الجزار، وتولى إدارة النادي فترة قصيرة، واستطاع خلالها إحضار فريق ريال مدريد الإسباني على نفقته الخاصة ليلعب مع الزمالك عام ٦١، لكن قرارات التأميم لحقته هو الآخر مما جعله يترك مصر كلها!

ولكن بعد خمس سنوات حل النَّحس ضيفًا على النادي الأهلي في موسم ٦٥-٦٦ وتلقى هزيمة مؤلمة من فريق القناة بثلاثة أهداف مقابل هدف واحد فقط، ووصل به الحال إلى احتلاله المركز العاشر في بطولة الدوري بعد تسعة أسابيع فقط من بداية

المسابقة، ومن هول الحدث تدخل المشير عبد الحكيم عامر -باعتباره رئيسًا لاتحاد الكرة- وقام بتعيين الفريق عبد المحسن مرتجى رئيسًا للنادي الأهلي (قبل النكسة بعام واحد فقط).

لكن رغم كل ما تعرض له الأهلي، ورغم أنها كانت فرصة الزمالك الكبرى في حصد بطولة الدوري، والتحلي مؤقتًا عن المركز الثاني الأقرب إلى قلب لاعبيه، فإن الزمالك تضامنًا مع الأهلي قرر إهدار هذه الفرصة التاريخية التي لا تأتي سوى مرة واحدة في العمر، وحصل على المركز الثاني، وأحرز النادي الأوليمبي درع الدوري لأول وآخر مرة في تاريخه!

وحدثت النكسة، وحين عادت بطولة الدوري في عام ٧٠-٧١ كان الزمالك الأقرب لإحراز اللقب، لكن في أثناء مباراة القمة احتسب الحكم محمد دياب ضربة جزاء للزمالك، فاعترض لاعبو الأهلي، وتم إلغاء الدوري!

هكذا كان الزمالك دائمًا على موعد مع النَّحس، ففي مطلع الثمانينيات حين وصل الزمالك إلى قمة الدوري، ولم يكن بينه وبين إحراز اللقب سوى الفوز في مباراة واحدة فقط، يومها أحرز الزمالك هدف الفوز، ولكن الحكم تشكك في صحة الهدف، وهاجت الجماهير وماجت، فذهب الحكم إلى اللاعب علي خليل الذي أحرز الهدف، وسأله: هل الهدف صحيح أم أن الكرة قد تسللت إلى المرمى من الخارج بعد أن «قطعت الشبكة»؟!

فقال له علي خليل «الكرة من بره يا كابتن»، فتم إلغاء الهدف، وفاز الأهلي بالدوري!

إن حظ الزمالك السيئ ليس فقط في أن الهدف لم يُحتسب، وإنما في أن الحكم ذهب إلى علي خليل -صاحب أفضل أخلاق في

تاريخ الكرة المصرية- فلو ذهب الحكم لأي لاعب آخر لأقسم له أن الهدف صحيح مئة بالمئة، وربما تحدث عن روعة الهدف الذي أحرزه!

لكنه حظ الزمالك التعس، ففي منتصف التسعينيات جمع الزمالك أفضل لاعبي مصر، وظن الجميع أن بطولة الدوري صارت قاب قوسين أو أدنى منه وأطلق الجميع على الفريق «فريق الأحلام»، وكان الأهلي لا يملك إلا عددًا قليلا من الأسماء اللامعة في كرة القدم، ورغم أن الزمالك كان يملك قوام المنتخب القومي بالاحتياطي، فإن الأهلي حصد الدوري، والزمالك ظل الثاني كما هو دائمًا.

وفي عام ٢٠٠٣، فاز الزمالك ببطولة إفريقيا للأندية أبطال الدوري، وصعد كأول فريق مصري ببطولة كأس العالم للأندية، فتم إلغاء البطولة.

وحين تصدر الزمالك الدوري في يناير ٢٠١١ وكان يبدو أنه في طريقه لإحراز اللقب وهو يحتفل بمئة عام على تأسيسه قامت الثورة، فتم تأجيل الاحتفال، وتم تأجيل الدوري لأجل غير مسمى، وحين عاد كان لاعبو الزمالك قد نسوا كرة القدم، فتصدر الأهلي القمة وحصد البطولة.

وفي العام التالي تفوق الزمالك، وتراجع الأهلي فحدثت مجزرة استاد بورسعيد التي راح ضحيتها ما يزيد على السبعين مشجعًا فتوقف النشاط الرياضي بأكمله، ثم عاد مرة أخرى بعد توقف عام كامل، وتألق الزمالك وكان الفريق الأجهز والأكمل والأفضل، وتصدر مجموعته، وصعد إلى المربع الذهبي، وصار الأقرب لحصد البطولة، فقامت ثورة ٣٠ يونيو ٢٠١٣.

لكن يمكن أن تضع كل النحس الذي أصاب الزمالك على مدار تاريخه في كفه، وتحسبه يوم مباراة «الستة واحد» في كفه أخرى، وتأكد أن الكفة الثانية أثقل، وأرجح!

فليس بعد الستة شيء، وقد شاء القدر أن أكون شاهدًا عليها!

فأنا واحد ممن حضروا مباراة «الستة واحد» في استاد القاهرة، لذلك لا أظن أن زملكاويًا حضر المباراة التي فاز فيها الأهلي على الزمالك بنصف دستة أهداف يمكن بعد ذلك أن يتأثر بأي نتيجة يخسر بها الزمالك، فما زالت تفاصيل ذلك اليوم وتلك المباراة محفورة بذاكرتي -مع الأسف- حتى الآن.

في ذلك اليوم ذهبت إلى استاد القاهرة قبل ست ساعات من بداية المباراة، وكان معي ستة من زملائي في المدرسة الثانوية فقد تعودنا أن نذهب معًا إلى مباريات الأهلي والزمالك في الاستاد.

كان من بين الطقوس التي اعتدنا عليها الذهاب مبكرًا إلى الاستاد خوفًا من أن لا نجد مكانًا، لدرجة أننا ذهبنا في إحدى المرات في العاشرة صباحًا رغم أن المباراة كانت في الثامنة مساءً، لكن الأغرب من ذلك أننا في كل مرة كنا نجد آلافًا من الجماهير قد وصلت قبلنا!

كان موعدنا في الواحدة والنصف ظهرا أمام محطة مترو أنفاق كوبري القبة، الكل جاء في الموعد المحدد بالضبط، وانطلقنا إلى الاستاد، وتحديدا إلى بوابة الدخول المخصصة لجماهير الدرجة الثالثة «يمين» الخاصة بجمهور الزمالك والتي تقع أمام المنصة، وتوجهنا مباشرة إلى طابور الدخول فلم نكن بحاجة إلى شراء تذاكر المباراة فقد ذهبنا لنحصل عليها من أمام نادي الزمالك خوفًا من نفادها من المنافذ الموجودة أمام الاستاد، ووقفنا في طابور لمدة

ساعة ونصف الساعة حتى وصلنا إلى المدرجات التي كان قد سبقنا إليها آلاف من الجماهير البيضاء.

وبمجرد أن جلسنا على المقاعد بدأنا في ترديد أحب الهتافات إلى قلب الزملكاوية «إحنا الزمالك إحنا ولاّ سيتم.. جايين عشان نضحك.. نضحك عليكم»، هكذا استمرت الهتافات لمدة أربع ساعات متواصلة دون توقف، وكنت أحد الذين يقودون الجماهير في التشجيع!

وبدأت المباراة، وقبل أن أجلس على مقعدي أحرز الأهلي هدفه الأول، لكني لم أتأثر، فقمت وهتفت «العب يا زمالك» ومرت دقائق وأحرز الأهلي هدفه الثاني، لم أكترث، وظللت كما أنا حتى جاء الهدف الثالث، فلم أعد أصدق ما يحدث أمامي، فالزمالك قبل المباراة كان الأفضل والأجهز لدرجة أن مدرب الزمالك قال «الأهلي يعنتي»، وفي أثناء اكتئابي أحرز حسام حسن الهدف الأول للزمالك من عرضية شقيقه إبراهيم، فدبّت فينا الروح من جديد، وظننت أن «الزمالك قادم!»، والمستحيل ممكن أن يتحقق، وأن يفوز الزمالك أو يتعادل على الأقل خصوصًا أن حسام أشار لنا أننا سنفوز «خمسة ثلاثة»، وربما كانت آخر إشارة قام بها في المباراة فبعدها أحرز الأهلي الهدف الرابع، فنظرت حولي فوجدت أن أغلب الجماهير البيضاء قد انصرفت، وحتى أصدقائي لم أجدهم بجواري.

وبعد دقائق قليلة صارت المدرجات خاوية على عروشها بعد أن أحرز الأهلي هدفه الخامس، ثم جاء السادس وكنت الوحيد من جماهير الزمالك الموجود داخل استاد القاهرة، وبالطبع الوحيد الذي شاهدت الهدف، ربما أكون في هذه اللحظة أشبه بحالة

الإخوان بعد خطاب السيسي في الثالث من يوليو.

لم أكن مصدق ما جرى ويجري أمامي، كأني فقدت الإحساس والعقل والمنطق لدرجة أنني بقيت حتى انصرف جمهور الأهلي!

وبعد انتهاء المباراة، وفي اليوم التالي اشتريت كل الصحف، ربما كنت أظن أن النتيجة يمكن أن تتغير على ورق الجرائد، بل إنني ذهبت لأشتري مجلة «الزمالك»، ربما لديها رأي مختلف في النتيجة!

وظل الاستاد بالنسبة إليّ مثل السينما، بمعنى أنه من الممكن أن تذهب إلى قاعة العرض وتشاهد فيلمًا باهتًا، وكذلك ممكن أن تذهب إلى الاستاد فتشاهد مباراة تصيبك بالشلل خصوصًا إن كنت تشجع الزمالك.

لكن منذ مباراة الستة وأنا أدرك حقيقة واضحة وناصعة، وهي أن الذهاب إلى الاستاد وتشجيع الزمالك من المدرجات له شروط منها:

١- أن لا تكون مريضًا بالضغط أو السكر أو أمراض القلب، لأن قلبك قد لا يتحمل ما تشاهده على أرض الملعب.

٢- أن تكون لديك مناعة ضد الهزائم، بمعنى أن تكون ممن يؤمنون بالمثل الشهير «يا بخت من بات مغلوب ولا باتش غالب» أظن أن صاحب هذا المثل زملكاوي أبًا عن جد!

٣- يجب أن يكون صوتك عاليًا جدًّا حتى تستطيع التواصل مع اللاعبين وأنت في المدرجات سواء بالثناء عليهم أو بتوجيههم أو بتحذيرهم من لاعب لا يرونه في الفريق المنافس، أو حتى بتوبيخهم.

٤- لا مانع من أن تحصل على بعض المهدئات «خلّيك بارد» ولا تتأثر بكل ما يفعله لاعبو الزمالك مهما حاولوا استفزازك، ويفضل أن تشتري كمية كافية من البنسون لأن «صوتك هيروح» سواء من التشجيع أو من التوبيخ -مشّيها التوبيخ!

٥- يجب أن تدرك الحقيقة الأهم وهي أن الهزيمة هي الأقرب، و«العكسة» قادمة لا محالة، والفوز هو الاستثناء خصوصًا لو كان على الأهلي، لذلك يجب أن لا تنساق خلف الآمال الواهية التي يروجها بعض صبية التشجيع!

حظه في الطالع!

سُئل الكاتب والناقد ورئيس اتحاد الكرة الأسبق عصام عبد المنعم في أحد البرامج التليفزيونية عن سر اختياره لحسن شحاتة مديرًا فنيًا لمنتخب مصر؟

فأجاب قاطعًا: «لأن حظه كان في الطالع»!

فابتسم المذيع، وقال: «من المؤكد أن هناك أسبابًا أخرى للاختيار، مثل قدراته الفنية، وشخصيته، وتاريخه كلاعب ومدرب».

فقال له: طبعًا، لكن السبب الأول هو الحظ، لأنه لو كان أفضل مدرب في العالم لكن «حظه في النازل» لم يكن ليحقق شيئًا، وأنا شعرت أن حسن في برج حظه، وأن هذه أفضل فترة يمكن أن يحقق فيها إنجازات للمنتخب.

وبالفعل نجح حسن شحاتة وتألق وتفوق بصورة لافتة، وحقق ما لم يحققه أحد قبله، وربما لن يحققه أحد بعده، وربط الجميع بين انتصارات شحاتة وحظه، والبعض رأى أن إمكانياته أقل مما حققه، وأن الحظ وحده تكفل بثلاث بطولات إفريقية، بل ذهب البعض إلى القول إنه يذهب لأحد المشايخ لاستطلاع رأيه في المباريات.

من البديهي أن يتعامل العقلاء مع هذا الكلام باعتباره ساذجًا، تمامًا مثلما يتعاملون مع التصريحات الساذجة التي تقول إن حارس

المنتخب عصام الحضري يستعين ببعض الدجالين قبل المباريات لمهمة، لكن المفاجأة أن الحضري نفسه اعترف بذلك في حوار صحفي أجراه معه محرر بـ«أخبار اليوم» ونُشر في عام ٢٠٠٨ قائلا: «شعرت أن هناك حالة من النحس وعدم التوفيق تلازمني فقررت ذبح عجل على باب غرفة خلع الملابس بالنادي الأهلي للتخلص من حالة النحس هذه لكن ظلت حالة عدم التوفيق تلازمني، وعشت محنة نفسية شديدة وأصبحت عصبيا لأقصى درجة، وأثور لأتفه الأسباب، وفي هذه الأثناء نصحني أحد أصدقائي بالتوجه إلى أحد المشايخ لعمل حجاب يمنع عني الحسد، ويحفظني من عيون الحاقدين».

ويكمل عصام قائلا: «لم آخذ كلامه في البداية على محمل الجد، ولم أهتم به ولكن مع استمرار هذه الأوضاع السيئة بدأت أفكر في الأمر جديًّا، لكني ترددت في الذهاب إلى أحد المشايخ بسبب ما أسمعه كل يوم عن القبض على أحد الدجالين، وهو يمارس أعمال الشعوذة، ولكن صديقي أقنعني بأن الشيخ إدريس حالة ثانية، فهو رجل مبروك بالفعل، وبعد إلحاح من صديقي هذا وافقت على أن ألتقي الشيخ إدريس في شقة صديقي بعد أن رفضت بشكل قاطع زيارته في منزله».

ويكمل الحضري قائلا: «وتم اللقاء، وبصراحة شعرت بقشعريرة عجيبة تنتابني عندما جلست وجهًا لوجه أمام هذا الرجل الذي كان يتمتع بنظرات حادة تشعر معها كأنه يخترق أعماقك، وبدأ الرجل بقراءة بعض آيات القرآن الكريم ثم بدأ يمسح بيديه على جسدي ورأسي، وأكد أن هناك عملا بوقف الحال عملته لي سيدة لا أعرفها مؤكدًا أنها تحبني بشدة، وقررت الانتقام مني بعد أن علمت بزواجي على الرغم من أنني لم أرها مرة واحدة في حياتي.

ومنحني الشيخ إدريس حجابًا وأكد أنه سيبعد عني الحسد ويعصمني من أي أعمال بالإيذاء، وعندما حاولت أن أمنحه نقودًا رفض، ولكني اشتريت له هدية قيمة، وأرسلتها إليه مع صديقي وكانت هذه هي المرة الأولى والأخيرة التي أرى فيها الشيخ إدريس.

لكن بعد شهور طالعت في الصحف خبر القبض على رجل سوداني يدعى محمد إدريس، وتمت إحالته إلى نيابة الرهة التي تولت التحقيق معه، ورددت بعض الصحف اسمي من بين المترددين على هذا الرجل في قائمة طويلة تضم عددا كبيرا من نجوم الفن والرياضة، ولكن النيابة لم توجه إليّ استدعاء، بعكس ما نُشر في إحدى الصحف، وحاولت بعد ذلك أن أنسى الشيخ إدريس وتجربتي معه وقررت التركيز في تدريباتي ومبارياتي».

ويضيف الحضري: «بالفعل غرقت في التدريبات وانهمكت في المباريات، وكان عام ٢٠٠٦ عام السعد بالنسبة إليّ لأنني قدمت في هذا العام واحدا من أجمل المواسم في حياتي الكروية، وأسهمت بدور فعال في فوز الأهلي ببطولة دوري أبطال إفريقيا، وحصلت على لقب أحسن حارس مرمى في البطولة، وسجلت هدفًا في مرمى بطل جنوب إفريقيا، ودخلت التاريخ كأول حارس مرمى يسجل هدفًا في البطولات الإفريقية، وعشت أيامًا من أسعد أيام حياتي، وبدأ المديح يطاردني أينما ذهبت، وعندما خلوت إلى نفسي بدأت أتساءل: هل كان هذا التألق راجعًا إلى تركيزي واجتهادي في التدريبات فقط أم أن حجاب الشيخ إدريس أبعد عني عيون الحاسدين؟ هل كان الشيخ إدريس دجالا محترفًا يجيد التمثيل والاحتيال على الناس أم أنه رجل مبروك صاحب كرامات ظلمته الظروف ولم يقتنع بقدراته أحد؟!».

هكذا اعترف واحد من أفضل حراس المرمى في تاريخ مصر، لكنه ليس وحده من النجوم الذين يذهبون إلى الدجالين، فعدد كبير من النجوم يذهبون إلى العرافين لقراءة الطالع، ومعرفة ما يحويه الفنجان، وفتح الكوتشينة، فهؤلاء بعضهم يريد أن يذهب إلى المستقبل قبل أن يأتي ويضع يديه على خطوطه، والبعض الآخر يريد أن يتخلص من النحس الذي يلازمه، فلا يوجد شخص يذهب إلى دجال ويثق برأيه ويفعل ما يطلبه منه ويصدق أكاذيبه ويروج خرافاته، إلا إذا كان يشعر أنه منحوس، ويريد أن يطرق الحظ بابه.

الحافي وماسح الأحذية

كان بلا منافس...

كان يمرر الكرة على جميع أجزاء جسمه ثم يلتقطها بأصبع قدمه، ليمررها من بين أقدام منافسيه الذين كانوا يذهبون للاستمتاع باللعب أمامه، رغم شهرتهم العالية ومهاراتهم وقدراتهم فإنهم جميعا كانوا يدركون أن مهارته أكبر، وموهبته أعلى، ولمساته للكرة أجمل.

الحافي أسطورة بكل ما تحمل الكلمة من معاني، بزغ نجمه فجأة، ولمع، وتألق، وصار حديث الناس، ثم اختفى في غمضة عين، ودون أن يشعر أحد.

حين بلغ الثالثة عشرة من عمره احترف «الكرة الشراب» وصار بارعًا في التحكم بها لدرجة جعلت الجميع يذهب للاستمتاع به، وأدرك الحافي ذلك فأمعن في استعراض مهاراته، حتى حضر إليه السماسرة، وجعلوا من موهبته سلعة، فسار خلفهم، وترك المدرسة الإعدادية، وانصرف نحو المال بعدما شعر أن لعبه يساوي الكثير، وأن المستديرة لن تدير إليه ظهرها.

فلم يكن جائزًا أن لا يعرف أحد من سكان حي العباسية في منتصف السبعينيات اسم «سعيد الحافي» بل لم يكن واردًا أن شخصًا يعيش في مصر ويهوى كرة القدم لم يسمع باسمه، ولم

ستع بمشاهدته، لكنه لم يستطع أن يصبح لاعبًا شهيرًا في الأندية الكبيرة لأنه كان لا يلعب إلا حافيًا، وإذا ارتدى الحذاء ضاعت كل موهبته التي تعجز الجميع عن مجاراتها، فهو لا يعرف المنافس إلا من لون «الشراب»، ولا يرفع رأسه إلا بعد أن تفارق الكرة قدمه، وما دامت الكرة بين قدميه فلا حاجة إليه برؤية وجه المنافس، فهو يمر بالكرة كيفما شاء.

حاول الجميع أن يصنعوا منه لاعبًا محترفًا، حاول معه محمود الخطيب، ومصطفى عبده، ومصطفى يونس، وطاهر أبو زيد، وغيرهم لكنه رفض، وحين أصر أحدهم على اصطحابه إلى النادي الأهلي ذهب معه للاختبار، ووجد نفسه شاردًا في الملعب لا يستطيع أن يلعب ويبدع بالحذاء، لدرجة جعلته يشعر بالانكسار، فألقى بالحذاء على خط الملعب، وأمسك الكرة بأطراف أصابعه، وراوغ الفريق بمفرده، وأحرز هدفًا عالميًّا، حافيًا ثم ترك الملعب، وانصرف إلى غير رجعة!

سعيد الحافي لم يدرك أن الحياة صعود وهبوط، وأن الذين يرفعونه على الأعناق اليوم قد يلقونه من أعلى البنايات في الغد، لكنه لم يتعلم أي شيء، وكان يكفيه أن يشعر بلذة الانتصار على مشاهير الكرة، وأن يرى في أعينهم نظرة الانبهار به، وبما يفعله، ويعجزون هم عن فعله أو مجاراته، لكنه أضاع كل شيء، لأنه كان لا ينظر إلا أسفل قدميه!

كانت المقامرة جزء من شخصيته، بل قل جزءًا من موهبته، فكان لا يلعب إلا إذا كان هناك رهان عليه، كان يلعب للمتعة ويكتسب قوت يومه بقدر ما يُمتع الجماهير، وشهرته كانت كفيلة بأن تجعل الجميع يراهن عليه، ويذهب إليه طائعًا، ويدفع ثمن

مشاهدته راضيًا، والمقامر لا يهدف المكسب في حد ذاته لكنه يرغب في زيادة المتعة في اللعب -على حد تعبير ديستوفسكي- وإذا كان هدف المقامر هو الرغبة في الفوز بثروة كبيرة فلماذا أغلب المقامرين من الأثرياء؟، لكن آفة المقامر أنه يؤمن بـ«وهم القدرة المطلقة» -مثلما يطلق عليه فرويد- فهو يظن أن بإمكانه التحكم في نتائج اللعبة، وهذه كانت أزمة الحافي، فلم يدرك بحدسه أن مهاراته لن تبقى أبد الدهر، وأن الوهن سيصيبه حتمًا.

لم يكن مشهد النهاية في حياة الحافي مثلما صوّرها فيلم «الحريف»، ذلك الفيلم الذي جسّد قصة حياته، فالواقع أكثر ألمًا وبؤسًا وشقاءً، فلم يعد سعيد يعرف طعم السعادة بعد أن تخلى عنه الحظ، وأدارت عنه الدنيا وجهها، ولم يعد أحد يعرفه أو يذكره أو يتذكره، لكن الأنكى من ذلك أنه لم يعد يذكر نفسه، أو يتذكر ما فعله، بل صار عاجزًا عن التذكر بعد أن أصابه مرض «ألزهايمر» وصار الحديث معه يحتاج إلى وسطاء ليروون له تاريخه!

ما جرى للحافي في بداياته تكرر مع كثيرين لكن على نحو مختلف، بعضهم لم نعد نتذكرهم، وبعضهم صار أشهر من أن لا نعرفه.

ولعل المثل الأشهر هو أسطورة البرازيل بيليه الذي وُلد في بيت عبارة عن حجرة واحدة فقط آيلة للسقوط، ومن فتحاتها تتساقط أمطار الشتاء وتمر الحشرات، وكان لا يملك سوى الثياب الرثة، ولا يتناول سوى وجبة طعام واحدة، ورغم عمله كماسح للأحذية لم يمتلك حذاء، لكن هذا لم يمنعه من حلمه، فكوّن فريق كرة قدم من الصبية في شارعه والشوارع المحيطة وأطلق عليه فريق «حفاة القدمين» وكانوا يلعبون كرة القدم وهم حفاة، ولم

تكن الكرة سوى «ثمرة جريب فروت» أو «جورب مليء بالأقمشة البالية».

وقبل أن يكمل عامه السابع صار والده عاجزا عن الحركة، بعد أن أصيب في ركبتيه، ولم يعد قادرا على وضع قدميه على الأرض، وصار نجله الصغير مضطرا إلى العمل، وحينها لم يكن مؤهلا لأي عمل سوى أن يكون ماسحا للأحذية، فشمّر عن ساعده، وجمع بمساعدة شقيق والده المال الكافي لشراء أدوات مسح الأحذية، وذهب إلى أحد الأحياء الراقية ليعمل هناك، لكن والدته أبت وأصرت أن يعمل في المناطق القريبة من منزله، لكنه كان يدرك أن هذه المهنة لا يمكن أن يُكتب لصاحبها النجاح ما دام يعمل في حي أغلب المقيمين به حفاة!

وفي عام ١٩٥٤ انتقل إلى أحد أندية الناشئين، وهناك تم تدريبه طويلا ليلعب بالحذاء، فلم يكن يستطيع التحكم في الكرة بالحذاء، لكنه صبر، وصبروا عليه حتى أتقن اللعب بحذاء الكرة، فقادهم إلى الفوز بكأس البرازيل للناشئين في نفس العام، ثم بدأ مسيرته الاحترافية بالانتقال إلى نادي «سانتوس» البرازيلي، وتوقع له النقاد وجماهير الكرة أن يكون من أفضل لاعبي العالم، وتم اختياره ليلعب ضمن صفوف المنتخب البرازيلي الأول قبل أن يكمل عامه السابع عشر. وبعد أربع سنوات ذهب مع المنتخب إلى كأس العالم ليصير أصغر لاعب يشارك في البطولة، لكن المفاجأة أنه قاد بلاده للفوز بكأس العالم بعدما أحرز هدفين في نهائي البطولة.

وحين قرر اعتزال كرة القدم كان قد فاز بكأس العالم ثلاث مرات، وحصل على جائزة أفضل لاعب في العالم، ولعب لمنتخب بلاده ٩٢ مرة لم يخسر خلالها إلا في ١١ مباراة فقط، وأحرز أكثر

من ألف هدف!

وفي تلك الأثناء كان يكره الاسم الذي اشتهر به، لدرجة أنه طُرد من المدرسة ذات مرة لأنه تعدى بالضرب على زميل له ناداه باسم «بيليه»!

بيليه والحافي كلاهما نشأ في أسرة فقيرة، وبدأ حياته حافيا، يلعب الكرة الشراب في الشارع، ويتحدث الجميع عن موهبته الفذة، لكن أحدهما ثابر وصبر، وساندته بلده، ودعمته حتى صار واحدا من أعلامه وعلاماته المميزة، وعندما قام حَكَم بطرده تدخل وزير الشباب والرياضة، وأصدر قرارًا بإيقاف الحكم شهرًا، ولم يستطع أحد الاعتراض على القرار، ليس لأن بيليه على حق والحكم على خطأ، ولكن بسبب المبررات التي ساقها الوزير لإصداره هذا القرار بقوله «لقد حرم الحكم الجماهير من متعة مشاهدة نجم محبوب، وتلك جريمة لا تُغتفر»!

أما الحافي فظل حافيًا، لم ينظر أبعد من تحت قدميه، ولم يجد من يرعى موهبته، فصار عاجزًا بعد أن كان يعجز الجميع عن اللحاق به، وقعيدا لا يقوى على القيام من فراشه، ولا يملك ثمن الدواء!

الفصل الخامس
صناعة الوهم

المصابون بالاكتئاب يميلون إلى الدقة في معرفة عيوبهم، لكن الأسوياء يلجؤون إلى تشويه الواقع والتضخيم من مزاياهم!

اليانصيب

صورة شديدة الوضوح لمحمد منير لكنه يقف فيها معصوب العينين، ومع الصورة سؤال قيمته ١٠ آلاف دولار..

والسؤال هو:

مَن النجم الذي تشاهده في الصورة؟

- شعبان عبد الرحيم
- محمد منير
- محمد حماقي

إذ تعرفت على النجم الموجود في الصورة اتصل الآن لتكون سعيد الحظ.

هذه واحدة من المسابقات التي تعرضها إحدى القنوات الفضائية -صاحبة الأعلى مشاهدة- فإذا أردت أن تصبح مليونيرا في وقت قياسي فأمامك أحد طريقين الأول: أن تسرق بنكًا، والثاني: أن تشترك في برامج المسابقات التي تملأ الفضائيات، وقطعًا الطريق الثاني أسهل وأسرع وأضمن.

هذه هي النغمة التي تعزفها أغلب القنوات الفضائية ليل نهار، بعضها بذكاء، وبعضها بسخف، ولم تعد هناك قناة فضائية يمكن

أن تتجاهل هذه النوعية من البرامج، بل صارت برامج المسابقات واحدًا من الثوابت، لها صناع دائمون، ومعلنون داعمون، وكتائب من المغفلين، يظنون أنهم يمكن أن يصبحوا أغنياء من ذوي الأملاك باتصال تليفوني واحد في الحياة.

فهذه البرامج تلعب على وترٍ تأثيره مضمون وهو حلم البسطاء في الثراء السريع، وتخاطب من يطمع أن يكون مليونيرًا في دقائق معدودة دون جهد، لكنها في الحقيقة تخاطب البسطاء لتسرق منهم الفتات الذي يحصلون عليه بعد عناء طويل، ليزداد الفقراء فقرًا، والأغنياء غنًى!

هذا هو الهدف غير المعلن الذي يدفع الجميع ثمنه، فقد صارت هذه البرامج أضخم من أن يوقفها أو يقف أمامها أحد، وصارت بيروت عاصمة صناعتها -بعد أن كانت عاصمة صناعة الكتب- وصارت مصر المستهلك الأول لها بحكم امتلاكها لملايين البسطاء الذين يحلمون بالثراء السريع.

إنها واحدة من كبرى عمليات تزييف الوعي الذي تقوم به وسائل الإعلام، بعضها عن جهل، والبعض الآخر عن عمد، وتسير عملية التزييف في طريقين، مثلما يقول الدكتور فؤاد زكريا في كتابه «التفكير العلمي»: الأول، تجاري هدفه الأول والأخير ترويج السلع بين الناس حتى لو لم يكونوا في حاجة ماسة إليها، وحتى لو كانت احتياجاتهم الحقيقية تتعلق بأشياء مختلفة عنها كل الاختلاف، وفي سبيل ذلك تقوم شركات الإعلان التي تعتمد على العديد من العلماء والباحثين بابتكار أكثر الطرق فاعلية لخلق حاجات أو رغبات مصطنعة بين الناس للقضاء على قدرتهم على التمييز بين ما هو ضروري وما هو غير ضروري.

أما الطريق الثاني الذي تسير فيه عملية التزييف فيتم عن طريق السياسة، إذ إن نظم الحكم المختلفة تستعين بأجهزة الإعلام من أجل دعم مركزها بين شعبها أو بين شعوب أخرى، وتلجأ إلى أساليب تتنافى مع مقومات التفكير السليم فتلحّ مثلا على نشر صورة زعيم معين وتضخيم أخباره، وتكرارها بلا انقطاع، وتستخدم كل أنواع المغالطات من أجل تبرير تصرفاته، وتعمل بحرص ودأب على هدم روح النقد، ونشر روح الانقياد، وهكذا يجد المجتمع نفسه يؤيد خططًا جائرة، ويصفق لزعماء يظلمونه، لأن الدعاية الحديثة أفقدته كل قدرة على التفكير السليم والرؤية الواضحة.

وأجهزة الإعلام صارت لا تعبّر إلا عن «الرأي الواحد»، ولا تكتفي بالتضليل، بل تشجع التفاهة، وترعاها، ظنًّا منها أن وسائل الإعلام مجرد أداة للترفيه فحسب، لتنسى دورها في نشر الثقافة الجادة خصوصًا بين أبناء شعب يحتاج إلى هذه القيم احتياجًا شديدا لكي يعوض تخلفه الطويل.

لكنها لعبة الإعلام المضلل الذي يعدّ ذراع السلطة في تزييف وعي الجماهير، والمعادلة بسيطة: كثير من الإسفاف، قليل من الجدية مع المبالغة في أحلام الثراء، خصوصًا أن أغلب الدراسات النفسية وضعت المال على رأس القائمة التي تجلب السعادة للناس.

لكن في سبعينيات القرن الماضي أُجريت دراسة نفسية على ٢٢ شخصًا صاروا مليونيرات بضربة حظ في «اليانصيب»، واتضح أنهم ليسوا بأسعد من ٢٢ شخصًا طبيعيين آخرين اختيروا عشوائيًّا للمقارنة، وخضعوا لنفس الدراسة، بل اتضح أن ما كان يسبب

لهم السعادة قبل الثراء -مثل مشاهدة التليفزيون ولقاء الأصدقاء وسماع النكات والتسوق- لم يعد يثير فيهم نفس القدر من السعادة.

إذن فالمال حين توافر لم يجلب السعادة لأصحابه، بل هناك أشياء أخرى كانت من مسببات السعادة لهم لكنها لم تعد كذلك بعد أن أفسدها المال.

من المؤكد أن هناك من يقول لنفسه «يا عم هات فلوس وارميني البحر»، وهناك أيضًا من يقرأ الأبراج ويسطر ما تخبره به، خصوصًا إن قالت له «مال كثير في الطريق إليك».

لكن في ستينيات القرن الماضي كان باب «حظك اليوم» مجرد باب للتسالي، وكان يشارك في كتابته الكتاب الساخرون ليرسموا البسمة على وجوه القراء كل صباح، ومن بين هؤلاء الكتاب الكاتب الكبير أحمد رجب الذي يروي قصته مع الأبراج قائلا: أعترف أنني لا أفهم شيئًا مطلقًا في علم الفلك، فكل معلوماتي عن هذا العلم تنحصر في أن في القاهرة شارعا اسمه شارع «الفلكي». كذلك لا أفهم شيئا في النجوم والتنجيم وقراءة الطالع غير أن هذا لا يمنع من الاعتراف بأني اشتغلت منجمًا ذات يوم، إذ كنت أحرر باب «بختك هذا الأسبوع»، وفي كتابة باب البخت لم أكن أشتغل بالتنجيم بقدر ما كنت أحاول بث التفاؤل في نفوس قراء البخت، فما دامت المسألة «كذب المنجمون ولو صدقوا»، فما الذي يمنعني أن أقول لمواليد برج العقرب: مفاجأة سارة في انتظارك، وأن أقول لمواليد برج الحوت: سعادة تامة في محيط الأسرة، وأن أبشر مواليد برج الميزان بفلوس زي الرز.

وصحيح أن المفاجأة السارة لواحد عقربي -من مواليد العقرب-

قد تكون إيقافه عن العمل وإحالته إلى النيابة الإدارية، وبالنسبة إلى واحد «حوتي» قد تكون السعادة التامة في محيط الأسرة هي خناقة بين الحما تنتهي بالعبارة المأثورة: والله ما أنا قاعدة لك في البيت، وفي الوقت الذي أبشر فيه واحد «ميزاني» ببرج بفلوس زي الرز، قد يكون هذا الميزاني دايخ على حسنة يسد بها رمق لأول الشهر

..كل هذا صحيح، ولكنه لا يمنع من أن أعطي القارئ الأمل الحلو، وأن أملأ صدره بالتفاؤل، فما دام المنجمون كذابين ولو صدقوا، وما دامت المسألة مفترضًا فيها الكذب في النهاية، أليس هذا إذن أفضل من أن أقول للقارئ: مصيبة محترمة في انتظارك أو ضائقة مالية تنتهي بفضيحتك والحجز على هدومك؟!

لكن أبواب الحظ على كثرتها لا يمكن أن تتنبأ بدقة بما يحدث على أرض الواقع، فالواقع في مصر يفوق الخيال أحيانًا.

٩٩,٩٪

التقيت في اليوم الأول في الصف الأول الإعدادي في مدرسة «الزيتون الإعدادية»، وشاءت الأقدار أن يجمعنا فصل واحد وهو فصل أولى أول، ذلك الفصل الذي يضم أوائل الابتدائية بإدارة الزيتون التعليمية والحاصلين على أعلى مجاميع فيها.

كان هو من الحاصلين على ٩٩,٩٪ في الشهادة الابتدائية، وكان تفوقه لافتًا، بل كان المقياس الذي نقيس أنفسنا عليه في الامتحانات، فإذا قال إن الامتحان صعب ندرك أنه تعجيزي، وإذا قال إنه تافه عرفنا أنه متوسط، فدائمًا هو يسبقنا بخطوة في القدرات.

كنا نجلس على نفس المقعد بل كنا نسكن أيضًا في نفس الشارع لا يفصل بيننا سوى ١٠٠ متر فقط، وظللنا معًا من الصف الأول الإعدادي حتى الثانوية العامة، وحتى عندما ظهرت نتيجة التنسيق، وذهبت إلى كلية الآداب قسم إعلام، بينما ذهب هو إلى كلية الهندسة جامعة عين شمس بمجموع ٩٩,٥٪، ظللنا نلتقي ولو بصورة غير منتظمة.

كان «محمد» قد قرر أن يعتبر السنة الأولى في الكلية بمثابة عام الاستراحة بعد عناء الثانوية، وظن أن بإمكانه أن يذاكر المواد في ليلة الامتحان، فحدث ما لم يكن متوقعًا، رسب صديقي، وصار عليه أن يعيد السنة، ولكن ما هوّن عليه هو أن عددًا كبيرًا من الأصدقاء المقربين والمتفوقين رسبوا أيضًا في السنة الأولى في كلية

الهندسة.

لكنه قرر أن يعود للجدية ويستعيد اجتهاده، وصبره، ومثابرته، وجلده، وتفوقه، لينجح في العام التالي، وبالفعل ذاكر، واجتهد، وفعل كل ما عليه، وذهب إلى الامتحان بعد أن ترك ثقته على باب اللجنة لكن صادفته مسائل معقدة، وجانبه التوفيق، ولم يستطع الإجابة عن الأسئلة، وخرج محبطًا مكتئبًا لكنه ظل ينتظر النتيجة على أمل أن يرأف به أساتذة المواد، لكن حدث العكس، ووجد نفسه راسبًا للعام الثاني على التوالي، ففقد ثقته بنفسه، وتخلّى عنه الحظّ الذي لازمه طوال سنوات المدرسة، وشعر أنه انتقل إلى الأيام النَّحسات، ولم يدرك أن امتحانًا أكبر يتعرض له، وأنه يقع أمام اختبار من السماء لثباته وعزيمته، لكنه لم يثبت، فالآلام التي بداخله وشعوره بالإهانة أمام زملائه لم يستطع تجاوزها، فانقطع عن الجميع، ولم يعد يذهب إلى المقهى الذي اعتدنا أن نلتقي عليه.

وشاء القدر في هذا التوقيت أن يرحل والده عن الدنيا، وقرر «محمد» الرحيل عن الحي الذي يسكنه منذ ولادته، وذهب إلى سكن بعيد حتى لا يرى أحدًا ممن يعرفونه، والتحق بكلية الآداب، قسم لغة عربية، لكن حين أتى موعد الامتحان تملّكته الرهبة، ولم يدخل إلى لجنة الامتحان، وجلس في بيته منقطعًا عن العالم لفترة، وحين عاد ذهب يبحث عن عمل لكنه لم يجد عملا مناسبا، وحينها فقدتُ الاتصال به، ولم أستطع التواصل معه.

ومرت أيام، وشهور، وسنوات، وكنت عائدا إلى بيتي حاملا صحف اليوم التالي بين يديّ، وصعدت إلى ميكروباص، وجلست في المقعد الواقع خلف السائق، ومددت يدي لأعطيه الأجرة، فمدت

عليه وعلى كل علامات الدهشة.. معقول؟!

كلانا يسأل نفسه: هل هو حقًا؟ هل هذا معقول؟! فبادرته قائلا: إزيك يا محمد.. واحشني يا صديقي.. فينك؟ فصمت، وبُهت، ووضع شريط عمرو دياب، مطربه المفضل منذ أيام المدرسة في الكاسيت وكان يغني «ما بلاش نتكلم في الماضي».. ففهمت الرسالة، وسكتّ!

هذه ليست واحدة من القصص التي نسجها الخيال، لكنها للأسف قصة حقيقية لا تحدث إلا في مصر وحدها، حيث من كثرة الدهشة لا دهشة، وحيث اللا معقول يمكن أن يصير معقولا جدا، الأول على المدرسة والإدارة التعليمية وأحد أوائل الثانوية العامة صار سائقًا على ميكروباص «رمسيس- مدينة السلام».

هذا ما يفعله نظام التعليم في مصر، فيمكن أن تهبط من طالب بكليات القمة إلى سائق، ويمكن أن تتساقط طموحاتك من مهندس إلى ميكانيكي.

صديقي «محمد عبد الحميد» ليس وحده الذي ضلّ طريقه، وسقط من القمة إلى القاع، لكن هناك عددًا هائلا من أصدقائي وزملائي الذين رافقتهم في رحلة التعليم وكانوا من أكثر الطلاب مهارة، وذكاء، وشطارة، وتفوقًا، ونبوغًا، لكنهم الآن في طي النسيان، وقد قابلت أحدهم وأنا أشتري الجرائد، فاكتشفت أنه هو من يبيعها رغم أنه حاصل على بكالوريوس آثار من جامعة القاهرة، وحين كنت أشتري «كيس المخلل» وجدت أن من يبيعه كان زميل دراسة وحصل على بكالوريوس صيدلة جامعة عين شمس!

ربما كان يمكن أن يصير هذا مصير عدد كبير من النوابغ والمشاهير لولا أن حظهم كان أفضل، فلولا سفر الدكتور أحمد

زويل إلى الولايات المتحدة لما استطاع الحصول على جائزة نوبل، وعندما كان سيصبح في أفضل الأحوال رئيس قسم الكيمياء بكلية العلوم جامعة الإسكندرية.

ولعل المثال الساطع على هذه التجربة المريرة لأحد كبار العلماء وهو الدكتور جمال حمدان الذي تعرض لظلم كبير حين تخطاه من هو أقل منه كفاءة، ومكانة، ودرجة علمية في الترقية بقسم الجغرافيا بكلية الآداب جامعة القاهرة، فاعتزل الحياة، وظل في بيته لا يغادره لمدة سنوات طويلة حتى رحل عن الدنيا، لكن لحسن حظنا أنه انقطع عن العالم ولم ينقطع عن الكتابة، فأهدى إلينا عددًا كبيرًا من الكتب التي تعد من أهم وأبرز المراجع العلمية في الجغرافيا السياسية علاوة على موسوعة «شخصية مصر» التي اشتهر بها رغم أنه لم يحصل على مقابل لنشرها، بل ظل طول حياته يعيش على قطع صغيرة من الجبن مع كوب لبن وكوب زبادي، ولا يفتح بابه إلا في مواعيد محددة ولا يستقبل إلا أقرب الأقربين.

وحين ذهب إليه الكاتب الكبير الأستاذ محمد حسنين هيكل دون موعد لم يفتح له باب شقته التي استأجرها في مطلع الستينات، وظل بها حتى مات مقتولا في بيته، وتشير الأدلة إلى أنه قد تم اغتياله من قبل عناصر تعمل لصالح الموساد، خصوصًا أن موسوعته «اليهود أنثربولوجيًا» اختفت أوراقها بمجرد وفاته، تلك الأوراق التي كانت تكشف بالأدلة العلمية الدامغة أن اليهود الموجودين في فلسطين ليسوا أبناء العم سام كما يدعون بينما هم أحفاد التتار.

لكن جمال حمدان رغم ما حدث له ومعه فإنه حافظ على

اتزانه النفسي، ولم تهتز ثقته بنفسه رغم ثلاثين عامًا من العزلة.

نفسية سيئ الحظ

حين أجرى بعض علماء النفس سلسلة من الدراسات حول الفروق بين الصحة النفسية للأسوياء ومرضى الاكتئاب توصلوا إلى نتيجة مدهشة، وهي أن الأشخاص الأسوياء يلجؤون إلى تشويه الواقع بشكل يجعلهم يشعرون أنهم في حالة أفضل من حالتهم التي هم عليها في الواقع، بل ويميلون إلى التقليل من عيوبهم، والتضخيم من مزاياهم! بينما المصابون بالاكتئاب أكثر ميلا إلى الموضوعية في الحديث عن أنفسهم فهم يميلون إلى الدقة في معرفة عيوبهم ومزاياهم، ولا يخجلون من الحديث حول ما ينقصهم!

ولكن يبدو أن لغة الصحة النفسية تميل إلى أن إدراك الشخص ذاته بصورة أفضل مما هي عليه في الواقع والتقليل من عيوبه قد يكون في مصلحته.

وقد حدد علماء النفس أساليب التفكير التي تصنع الاكتئاب، والتي من بينها لجوء الشخص إلى التعميم حيث يميل المكتئب إلى الأحكام المطلقة والتعميمات المتطرفة، ويريد أن يحكم على الأشياء باعتبارها إما بيضاء وإما سوداء دون أن يدرك أن الشيء الواحد قد يبدو في ظاهره سيئًا ولكن يحتمل أن تكون فيه أشياء إيجابية مستقبلا، علاوة على أن المكتئب يميل إلى التأويل الشخصي للأمور، أي ينسب إلى نفسه مسؤولية النتائج السلبية في المواقف التي يمر بها.

كما يميل المكتئب أيضًا إلى التفسير السلبي لما هو إيجابي، ويعزل الأشياء عن سياقها، ويركز على جزء من التفاصيل السلبية ويتجاهل الإيجابية، كأنه قد وضع منظارًا على عينيه لا تكشف له عن شيء طيب في حياته، ولا يُظهر له إلا ما هو معتم وظالم نفسه، وهذا يحدث أحيانًا نتيجة قراءته للمستقبل بصورة سلبية.

وفي الكثير من حالات الاكتئاب تكون هذه الطريقة في التفكير السلبي سببها القفز إلى الاستنتاجات استنادًا إلى معلومات خاطئة ومضللة تجعل الشخص ينتزع الحقائق من سياقها لينسج عليها أوهامًا من خياله، ولا يكتفي بهذه القراءة السلبية للأحداث بل يتصرف تجاه الآخرين وفق هذه التصورات كما لو كانت حقيقية.

وهذا بالضبط ما يفعله أيضًا الشخص المتشائم، فهو يتخذ من الأحداث الخارجية علامات يضفي عليها معنى ومغزى، ويتخذ منها نُذُر سوء يتشاءم منها.

هكذا يعرِّف عالم النفس «سيجموند فرويد» الشخص المتشائم، ويرى أنه ما دامت لا توجد علاقة بين ما تشاءم الشخص منه وبين الحادث الخارجي، فالمسألة مجرد مصادفة لا أكثر، ولكن الحالة تختلف تمامًا عندما تصدر أخطاء غير مقصودة (مثل ضياع الدبلة) وهذه لا يعتبرها فرويد مصادفة بل لها دلالة، فهي أفعال لا بد أنها تنطوي على شيء مخبّأ داخل عقل الشخص.

فضياع خاتم الخطوبة أو الزواج مجرد سهو، لكنه لدى علماء النفس له دوافع شعورية تنمّ عن رغبة في التحرر من القيد، ولا يرجع ضياع الخاتم إلى المصادفة، وإنما يبدو نوعًا من الحالة النفسية التي تعبر عن رغبة كامنة داخل الإنسان في التحرر من الزواج.

ويذكر فرويد أن التشاؤم كان له ما يبرره في العصور القديمة، وكان متفقًا ومتمشيًا مع الحالة العقلية التي كانت سائدة وقتئذٍ، أما الآن فلا محل له في المجتمع بعد كل هذا التقدم في العلوم، فسلوك الرجل الذي رأى سربًا من الطير فاتخذه نذير شؤم له ما يبرره نسبيًّا لأنه يتفق مع العقلية التي كانت سائدة حينها، ولكن لو أن هذا الرجل عدل عن مشروع لأن قدمه تعثرت سهوًا في عتبة الباب فإن زلّة قدمه تدل على التردد والشك أو على إقباله على عمل وهو كاره له.

ويضيف فرويد «إن التشاؤم سببه الدوافع العدائية المكبوتة لدى الشخص، والخوف من الشرور، فمن يتمنى الشر لغيره فإنه يتوقع عقابًا يأتيه في صورة نحس».

ونظرًا إلى أن الشخص المتشائم يفسر الحادث بالمصادفة، ولا يعرف شيئًا عن دوافع الأخطاء غير المقصودة التي تصدر عنه، ونظرًا إلى ضرورة تعرفه على هذه الدوافع فإنه يضطر إلى التخلص منها بأن ينسبها إلى العالم الخارجي، بينما هي نتيجة لوجود نزعات وميول ورغبات كُبتت في اللا شعور لأنها لا تتفق مع آداب المجتمع وتقاليده، ولكنها لم تخمد، بل ظلت حية تتحين الفرصة للإفلات من الرقيب، والإفصاح عن نفسها في الأعمال العشوائية، والسهو، والخطأ.

ويمكن أن نقول إن رموز التشاؤم وعلاماته ربما هي محض خرافات، لكننا لا نستطيع أن نقول في الأفعال العفوية كضياع الدبلة والعثرة في أثناء السير التي تحدث سهوًا ودون قصد إنها خرافات، فالتطيُّر من هذه الحركات له ما يبرره، لأنها حركات ذات مغزى، ولها دوافع لا شعورية، وقد يسهم المتطير بنفسه لا شعوريًّا في

تحقيقها.

لكن آفة المتشائم أنه يفضّل العيش داخل الجماعات المغلقة على نفسها، والمنغلقة على أفكارها، فيعاني من الغربة والانطواء، وينشغل بمراقبة الناس، والحقد عليهم، وسوء الظن بهم، وينسج حولهم بخياله ما يشتهيه من الأخطاء والنقائص، ويحمّل كلامهم تفسيرات من نفسه ليس لها أصل أو فصل، ويعتبر نفسه دائمًا هو الضحية، ويكون أكثر ميلا إلى الاكتئاب فلا يرى إلا الفشل، ولا يفكر إلا في الخيبة، ويتخيل من كل ما يراه أو يسمعه، ويكون أشد الناس خوفًا، وأنكدهم عيشًا، وأضيقهم صدرًا، وأحزنهم قلبًا.

ويظن -وبعض الظن إثم- أن الأمة، كل الأمة، مشغولة به وبإلحاق الضرر به، وأن الناس يخططون لإيذائه، ولا يرتقي نحو تحسين أحواله ومعرفة نقاط الضعف والقوة في جميع تصرفاته، فإذا فشل في تجارة أو أُصيب بمصيبة أو تجمّد في وظيفة أرجع هذا كله إلى سوء الحظ، وبالتالي لا يرجع إلى نفسه التي بإمكانه أن يصحح مسارها، ويتدارك ما قصر فيه، بل يبقى كئيبًا، عاجزًا، عابثًا، لا يعرف التطور، ولا يرغب في التغيير، ولا يسعى لمعرفة الأسباب، فضلا عن أنه لا يأخذ بها.

المتشائم بطبعه سلبي، يظن نفسه متوكلا وهو متواكل، ويرى أنه مجبَر على كل ما يفعله، وأن طريقه مسدود، وخياراته محدودة، وآماله لا أمل فيها، وأحلامه محكوم عليها بالفشل، ومستقبله مظلم.

بينما المتفائل يدرك أن بإمكانه أن يصنع حظه إن أراد، بل يمكنه تغيير مصيره، وصناعة مستقبله، وتحقيق أحلامه وآماله وطموحاته والوصول إلى تطلعاته، فمن المؤكد أننا إذا تفاءلنا بالخير سنجده

حتمًا.

النَّحس مذكور في القرآن

في أحد الأيام خرج الملك بصحبة وزيره لرحلة صيد، فأصيب يده، وقُطعت إصبعه، فسأل وزيره المؤمن بالقضاء والقدر. ما رأيك في ما جرى؟

فقال له يا مولاي: «قدرُ الله لا يأتي إلا بخير».

فغضب الملك، وأمر بوضع الوزير في السجن، ثم خرج بعد أيام برحلة صيد جديدة، وقامت عاصفة، فانحرف المركب عن مساره، وانقلب بمن فيه، ونجا الملك على قطعة خشبية قدته إلى قوم يذبحون مَن هو أفضلهم وأجملهم تقربًا إلى الآلهة، وحين رأوا الملك قرروا ذبحه!

وأحضروه، وأوقفوه في ساحة الذبح ليراه الجميع، وحين اقترب منه كبيرهم، وهو ممسك بسيفه، أشار إلى أتباعه أن يحملوه خارج الساحة، فاندهش الحضور، وأبدو انزعاجهم مما حدث، فقال لهم: «هذا رجل به علة، والآلهة لا تقبله».

واسترد الملك أنفاسه التي كادت تنقطع من رؤية السيف ولمعانه، وتركوه ليعود إلى مُلكه، فعاد واستدعى وزيره وقصّ عليه ما جرى، وقال له: لقد صدقت معي حين قلت «إن قدر الله لا يأتي إلا بخير»، ولكن يا وزيري هذا الخير لم يشملك، فقد ذهبت إلى غياهب السجون، فقال له «يا مولاي إني ليست بي علّة، ولم

أفارقك في رحلة صيد من قبل، ولو كنت معك لذبحوني بدلا منك»!

هكذا يفسر المتفائل ما يجري حوله ومعه وفيه، أما المتشائم فيشك في كل ما حوله، ويُحمّل الوقائع بأكثر مما تحتمل. وهناك شيء واحد يجمع أغلب المتشائمين، وهو أن جميعهم يتشاءم من رقم ١٣، وكل واحد يفسر تشاؤمه من هذا الرقم وفق ما جرى معه أو سمع عنه، فالأساطير حول هذا الرقم تصنع مجلدات، ففي عام ١٨٠٠ قرر ١٣ شخصًا تأسيس نادٍ لا يضم بين أعضائه سوى ١٣ عضوًا فقط، وأن يجتمع الأعضاء في اليوم الثالث عشر من كل شهر!

وقد كان من بين أعضاء النادي خمسة أشخاص رؤساء الولايات المتحدة هم: بنجامين هاريسون، وغروفر كليفلاند، ووليام ماكينلي، وثيودور روزفلت، وتشيستر آرثر، واللافت أن اثنين من هؤلاء الرؤساء تم قتلهم في حوادث مأساوية والآخرون تعرضوا لأحداث مؤسفة!

لكن هناك أحداثًا كثيرة أسهمت في تضخيم أسطورة هذا الرقم، وجعل بعض الفنادق الكبرى تحذفه من قوائمها، وبعض الدول لا تذكره في أرقام شوارعها ومنازلها، بعضها حقيقي، فهناك أحداث دامية وقعت في هذا التاريخ في عصور مختلفة، ومنها بعض التفاصيل البسيطة مثل أن ١٣ هو عدد الخطوات التي يخطوها المحكوم عليه بالإعدام حتى المشنقة، ويقال إن الجلاد عليه أن يلف الحبل ١٣ مرة على عنق الضحية حتى يخنقها!

هذا الرقم يتشاءم منه أغلب الناس، عالِمهم وجاهلهم، لكن هناك من كان يتحدى أسطورة هذا الرقم ويسعى لجعله فأل

حسن عليه مثل الكاتب والمفكر عباس العقاد. لم يكن العقاد يتشاءم من شيء بل يتحدى التشاؤم، فكان يسكن منزلا في مصر الجديدة يحمل هذا الرقم، وكان الرقمان الأولان من تليفونه هما ١٣، وقد بدأ بناء منزله في أسوان يوم ١٣ مارس، وقسم كتبه ١٣ قسمًا، واحتفظ بتمثال للبومة كان يضعه على مكتبه، ومن الغريب أنه دُفن في أسوان يوم ١٣ من مارس!

وما فعله العقاد كرره لاعب الأهلي محمد عبد الوهاب الذي اختار الرقم الذي يهرب اللاعبون منه، ونجح وتألق به حتى صار لاعبًا أساسيًّا في منتخب مصر، وحصل على بطولة إفريقيا مع المنتخب ومع ناديه، بل حصد عددًا كبيرًا من البطولات في وقت قصير للغاية، لكنه فجأة سقط مغشيًّا عليه خلال أحد التدريبات، ورحل في نفس اليوم، وعمره لم يتجاوز ثلاثة وعشرين عامًا.

مجرد صدفة يمكن أن تحدث لأي شخص، وفي أي وقت، لكن شاء القدر أن تحدث مع هذا اللاعب دون غيره، فالإنسان يصنع حظه ونحسه، لكن كليهما مؤقّت وإن طال، ففي لحظة تشعر كأنك يمكن أن تصل إلى عنان السماء، وفي أخرى قد تهبط إلى أسفل سافلين، هذه هي معادلة الحياة، ولكن هناك مشايخ وقساوسة يتاجرون بآمال الناس وآلامهم، ويُشعرونهم أن بإمكانهم تغيير النَّحس الذي يلاحقهم عن طريق قراءة الطالع، وصرف الجن والعفاريت عنهم، وقد وصل عدد هؤلاء إلى مئات الآلاف -وفقًا للدراسات- بعضهم يزعم قدرته على علاج الأمراض عن طريق تحضير الأرواح، والبعض الآخر يؤكد أنه يُعالج بالقرآن والإنجيل.

لكن قبل ما يزيد على نصف قرن كانت جلسات تحضير الأرواح قد قفزت إلى ذروة اهتمام الرأي العام لدرجة أن بعض المثقفين

اجتمعوا في أحد أيام شهر يونيو عام ١٩٥٠ لتحضير روح سعد زغلول، وكان أحد شهود هذه الجلسة هو المؤرخ الكبير جمال بدوي وقد روى ما جرى فيها، ولعل أطرف ما حدث في هذه الجلسة هو أنهم سألوا سعد باشا: هل أنت راضٍ عن حال مصر الآن؟

فأجاب «سعد» قائلا: «لن ينصلح حال مصر، لأن الطمع تمكن من القلوب، وزالت الثقة بين الزعماء والشعب».. ثم انصرفت روح الزعيم من القاعة!

لم تتوقف جلسات تحضير الأرواح عند هذا الحد فقد استعان بعض المثقفين في كتاباتهم بهذه الجلسات، ومن بين هؤلاء الكاتب الكبير جليل البنداري الذي كان يهوى جلسات تحضير الأرواح، وذات مرة لجأ إلى دجال يُدعى «الحاج طلبة»، ليقوم بتحضير روح الست شوق البولاقية التي هام بها نابليون بونابرت غرامًا خلال وجوده في القاهرة أيام الحملة الفرنسية.

جليل كان بصدد كتابة أوبريت غنائي يحكي غرام نابليون بفاتنة بولاق، ورأى أن تحضير روحها سوف يمكّنه من كتابة الأوبريت بتفاصيل تاريخية صحيحة.

ولأمر ما تغيّب الوسيط الذي يتم تحضير الروح عليه، فاختار الحاج طلبة وسيطا آخر، وراح يُجري طقوسه في الغرفة المعتمة، وما لبث أن سرت همهمات غامضة حضرت بعدها روح شوق البولاقية!

وقالت «شوق» إنها تعرفت على نابليون في بيت مدور الكحكاوي وأمه، وأعجب بها إعجابا شديدا، وروت شوق تفاصيل كثيرة عن غرام نابليون بها، لكنها صُدمت صدمة فظيعة عندما اكتشفت أن

نابليون كان يريد أن يستولي على مصاغها خصوصًا خلخالها الذهبي!

وكان جليل يكتب كل هذه التفاصيل بدقة وتركيز حتى اكتشف أنه «مقلب» فعله فيه واحد من أصدقائه، ولعب دور «شوق البولاقية» وكان هذا الصديق هو الكاتب الساخر أحمد رجب.

هذه الواقعة لا تعني أن هذه الظاهرة انتهت، فما زال هناك عشرات من المشاهير في السياسة والفن والرياضة يلجؤون إلى العرافين، لكن قد يقع هذا في دائرة التخمين بين الشك واليقين، لكن ما يجعله يقترب من اليقين هو ما ذكرته العرافة «كاميليا» في أثناء التحقيق معها بعد القبض عليها، وقد نشرته الصحف -ولم يقم أحد من الفنانين بنفي هذه الوقائع- من أن هناك عددًا كبيرًا من كبار الفنانين والسياسيين ذهبوا إليها أمثال عمرو دياب الذي ذهب إليها في بداية حياته، ونبيلة عبيد التي نصحتها بعدم الزواج والتركيز في العمل، وتوقعت لهالة صدقي الانفصال عن زوجها، وحذرت الراقصة دينا من الزواج من رجل الأعمال حسام أبو الفتوح.

وزعمت أن الفنان سمير غانم ذهب إليها يستشيرها قبل مسرحيته «دو ري مي فاصوليا» ورشحت له شعبان عبد الرحيم، فاستجاب لها، ونجحا وحققا إيرادات كبيرة في فترة قصيرة!

واعترفت الفنانة «رانيا يوسف» في أحد البرامج التليفزيونية بذهابها إلى عرافة لتقرأ لها الطالع، وتخبرها عما يخبئ لها القدر، وذلك حين كانت تشعر أن النحس يطاردها!

الرؤساء أيضًا يؤمنون بالحظ، ويخشون النّحس، وينتظرون الفأل الحسن من أعوانهم حتى لو كانوا يكذبون عليهم ويخدعونهم من أجل أن يحصلوا على ذهب الحاكم ويفرّون من سيفه، بذا يظن

أغلب الحكام -إن لم يكن جميعهم- أن قبولهم الحكم من حسن حظ الشعب!

ولعل أبرز مثال على ذلك أبو جعفر المنصور الذي كان يجلس يومًا مع بعض أهل الشام وقال لهم: ألا تحمدون الله تعالى، إذ رفع عنكم الطاعون منذ وُلّينا عليكم؟ فردَّ عليه أحد أهل الشام وكان يُدعى «جعونة»: إن الله أعدل من أن يجمعك والطاعون علينا!

لكن قد يجتمع الاثنان معًا -الطاغية والطاعون- حين يظهر احمرار شديد في الأفق يشبه النار المتوهّجة الخالية من الدخان.. هكذا يَعرفون النَّحس، ويُعرّفونه.

والسؤال: هل هناك نحس فعلا؟

والجواب: طبعا، وقطعًا، فقد جاء ذكر كلمة النَّحس في القرآن ثلاث مرات، وذُكر الحظ سبع مرات، وجاء أيضًا ذكر لفظ التطيّر -بمعنى التشاؤم- ست مرات في ثلاثة مواضع كلها جاءت في معرض ذم أعداء الرسل الذين كانوا يتشاءمون من الأنبياء وأتباع الأنبياء، إذ كانوا يظنون أن المصائب التي تحل عليهم بسبب أنبيائهم وما يدعونهم إليه، لذا رفض الإسلام التطير جملةً وتفصيلا بل اعتبر المؤمنين به مشركين.

وهل هناك أشخاص محظوظون وآخرون منحوسون؟

نعم، هناك أشخاص ذوو حظ عظيم، وهناك آخرون يعيشون أيامًا نَحِسات، وكلاهما مذكور في القرآن ومحدَّد سبب حظ هذا ونحس ذاك، والمسألة كلها مرتبطة بمدى التقوى والإيمان والكفر والعصيان، فالمؤمن محظوظ حتى لو وقعت على رأسه مصيبة، والكافر منحوس حتى لو صار رئيسًا!

كتب ملهمة

عجائب الآثار في التراجم والأخبار، الجبرتي.

مصر من تاني، والمضحكون، محمود السعدني.

التفكير العلمي، الدكتور فؤاد زكريا.

المقامر، دوستويفسكي.

روح الثورات، جوستاف لوبون.

شخصية مصر، الدكتور جمال حمدان.

شخصية مصر، الدكتور نعمات أحمد فؤاد.

فقر الفكر وفكر الفقر، الدكتور يوسف إدريس.

مذكرات عرابي، أحمد عرابي.

في ساعة نحس، ماركيز.

سيكولوجية المقامر، أكرم زيدان.

الاكتئاب، الدكتور عبد الستار إبراهيم.

التخلف الاجتماعي مدخل إلى سيكولوجية المقهور، الدكتور مصطفى حجازي.

النكتة السياسية، عادل حمودة.

فتح بطن التاريخ، بلال فضل.

زملكاوى، عمر طاهر.

تاريخ الأسطورة، كارين أرمسترونج.

جذور الاستبداد، الدكتور عبد الغفار مكاوى.

أخبار المصريين في القرن العشرين، سعيد هارون عاشور.

التفاؤل والتشاؤم، نجيب يوسف بدوى.

علم اسمه السعادة، الدكتور أحمد مستجير.

رادوبيس، نجيب محفوظ.

لماذا يزداد الأثرياء ثراء والفقراء فقرا؟، مارك بوكانان.

بحث بعنوان «التطير مفهومه وآثاره وسبل علاجه» إعداد الدكتور جابر السميري والدكتور عبير سليمان.

الفهرس

هل نحن شعب منحوس فعلا!

محمد توفيق

البني ادمين نوعان: واحد يسيطر على النحس، وآخر يسيطر عليه النحس!
لا يوجد إنسان على وجه الأرض لم يشعر في لحظة بأنه سيئ الحظ، لكن هناك من يقمع هذا الشعور بالجد والاجتهاد والصبر والمثابرة، وهناك من يتركه يتمدد وينتشر ويتسرب إلى نفسه حتى يشعر أنه المنحوس الأكبر على وجه الكرة الأرضية.
في مصر لا تحتاج إلى سبب لتشعر أنك سيئ الحظ، فكل ما حولك يدعوك لأن تغلي من فورة الغضب، فكل بني آدم فيه "حتة نحس". وإذا كان مصريًا فهو لديه، قطعا، قطعة أكبر من غيره.
والسؤال: هل نحن شعب منحوس فعلا؟
والجواب: من المؤكد أنه لا يوجد شعب بأكمله منحوس وآخر محظوظ، لكن في الوقت نفسه ليس صدفة أنه كلما تولى السلطة في مصر رجل قوي خلفه على العرش رجل ضعيف!
لكن رغم ذلك المصري بطبعه متفائل؛ لأنه لو لم يكن كذلك لصارت معدلات الانتحار تاريخية، ربما لأن أقصى طموحاته أن يظل حيا، فهذه وحدها واحدة من المعجزات، فرغم كل ما يحدث حوله ومعه وفيه فإنه ما زال صامدا وقادرا على الضحك ومصرًا على التفاؤل.